

شوارع ديسمبر

رواية

أحمد نبيل

أحمد نبيل

شوارع ديسمبر

رواية

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب:
شوارع ديسمبر.... (رواية)
اسم المؤلف: أحمد نبيل
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
٢١٤٨ /٢٠١١
الترقيم الدولي:
٩٧٨-٩٧٧-٦٤٠٢-٢٢-٥
تصميم الغلاف: محمد عياد.

الطبعة الأولى ٢٠١١

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
ش محمد حجاج – عمارات معروف – عمارة (ب) – الدور الثاني شقة ١٦ – وسط البلد القاهرة – جمهورية مصر العربية

البريد الالكتروني:
Baitelyasmin@yahoo.com
ziadibrahim_2008@yahoo.com

تليفون:–
(+202) 25763942
(+202) 0111 00 94 62 5

رواية

شوارع ديسمبر

أحمد نبيل

فصول السنة كلها يجب أن تكون ديسمبر

والأرض مُصاغة من بلور ...

عزيزي أرمسترونج ..

ليست المرة الأولى التي أحاول فيها الكتابة إليك، تحتاج الكتابة إلى خفة تنقصني، تمنعني عنها أثقال عمرها ثلاثين عاما، لم أفلح يوما في حملها، تدربت على التعايش معها فحسب.

أفتقدك ؟.. منذ أن رحلت لم أعد أصحو على صدى أغنياتك المزعجة في الليل والنهار، ولا زلت أذكر أنك حرمتني النوم على مدار سبع سنوات بصرخات الروك آند رول وإيقاعات الجاز والميتال وأشباح «بينك فلويد» التي صارت تطاردني في المنزل، وبسببك أيضا حلمت ذات ليلة بالمغني الوسيم «جون لينون» يتسلل إلى فراشي، وفي نهاية الحلم يترك لي نظارته السوداء على سبيل الذكرى !.. عذرا، حاولت ألا تحمل رسالتي إليك عتابا، حاولت أن أجعلها عاطفية بقدر ما حتى أنني استعنت بنماذج من الخطابات الغرامية لطالبات المدرسة، وفشلت بالطبع.. هل تضحك ؟.. لتكن إذن رسائلي إليك بمثابة تدريبات على الخفة ومحاولة أولى للبوح.

فيرونيكا

— ١ —

الأربعاء ١/١٢/ ٢٠٠٤

الطير يتوافد مع طلة الشمس ويحط على نوافذ بعيدة، هناك في القرية التي تركت فيها ذكريات طفولتها راودها نفس الحلم للمرة الأولى. كانت غافية حين تسلل إلى مخدعها عصفور صغير وبدأ ينقر شفتيها بوداعة، تمطت بنعومة، شعرت بالعصفور يختبيء في صدرها من فتحة المريلة، وعندما فتحت عينيها على صرخات المغنية السمراء «كوكو تايلور» القادمة من منزل جارتها لم تجد للعصفور أثرا، لحظة خاطفة عادت خلالها امرأة على مشارف الثلاثين، بلا ضفائر، ولا مريلة. النافذة الموصدة التي لم تفلح في صد هجمات البلوز لا تسمح للعصفور بالدخول. لا بأس؛ ستدفن رأسها في صدر سامح من جديد ربما عادها العصفور، وفي الصباح ستحاول جاهدة ألا يضبطها أحد تتثاءب في طابور المدرسة.

على سلالم المدرسة تتبادل البنات النكات في الطريق إلى الفصول، اعتادت أن تبادلهن البسمات في صمت، عدا ذلك لم تحاول أن تتورط في علاقة حقيقية مع البنات خارج سياق المدرسة، حتى خلال المجموعات

الدراسية التي تقيمها في منزلها بأسعار زهيدة، لم تتدخل يوما في شئونهن، لم تأبه بدخان السجائر في دورات المياه، الرسائل الغرامية المنسية في دفاتر المدرسة عن غير قصد، حتى دروس التاريخ التي شهد لها الجميع بتحقيق أعلى نسبة نجاح فيها لم تكن تشغلها، كانت ترويها فحسب مثل حكايات حافلة بالبطولات والهزائم تساعد على النوم، لذا كانت حصتها اليومية محببة إلى البنات، تسمح ــ بين حكاية وأخرى ــ بضبط «الميك أب» وإنهاء الواجبات الخاصة بمواد دراسية أخرى، والتهامس حول مدرسة البنين وأفلام السهرة، وأحيانا تبادل النغمات الجديدة على الموبايلات. خلال الحصة الثانية هاتفها سامح وأخبرها أنه مر على سناء وترك لها «علي»، ستصطحبه مع أولادها للنادي وسيأتي به في آخر الليل، أكد على أنه سيكون بانتظارها في حوالي الرابعة مساء، وأنه لن يعود للمنزل، سيتناول غداءه في البنك، ويتسكع قليلا في وسط البلد قبل أن يلتقيا على كوبري قصر النيل كالعادة. لا تصدق أن زوجها صبياني إلى هذا الحد، اليوم يمر العام السادس على زواجهما ولا يزال سامح مراهقا بعد.

ــ أنا هامشي بعد الحصة الرابعة، أرجع البيت على واحدة تقريبا، وافوت على سناء بالمرة أشقــر على «علي» قبل ما نخرج، ماتنساش دواك..

ــ ماتنسيش البلوزة !

في الواحدة بالضبط كانت ترتقي سلالم العمارة مسرعة كتلميذة تأخرت عن الصف، تسارع إلى شقتها منفعلة من رؤية شاب وفتاة يتعانقان في بهو العمارة. تمنت لو بإمكانها أن تلقنهما درسا في الأدب،

أن تجز الفتاة من شعرها الأحمر المنتصب كالإبر أو تخلع الحذاء لتؤدي على رأس الشاب ضربات القدر لبيتهوفن، أن تثير فضيحة في العمارة، لكنها لم تتدرب على مهارات من هذا النوع، وبصراحة كانت تتحين الفرصة للانتقام منه منذ سنوات ليس لأنه حرمها النوم كما كتبت في رسالتها فحسب، ولا بسبب شجاراته المستمرة مع أمه التي تصل لأسماع الجيران فتنسج حولها الأساطير، إنما لأنها (وبدون هزار) كانت تخافه ـــ في المرات القليلة التي جمعتها به أثناء الطلوع والنزول كانت تصاب بالرعب من هيئته، شعره المتهدل خارج الكاب، ثيابه الملونة، النظارة السوداء التي تخفي نصف وجهه، وابتسامة تهكم مرسومة دائما على شفتيه كأنه مولود بها ـــ لدرجة أنها لم تحاول مرة النظر إليه عن قرب. تخيفها الأغاني التي يسمعها، والحكايات التي يتناقلها الجيران عن سيرته، أشهرها على الإطلاق تورطه في علاقة جنسية مع إحدى الجارات ـــ في حوالي العاشرة من عمره ـــ تسبب في قطع علاقتها بأمه بعد صداقة سنين، وبالنسبة لامرأة جبانة بطبيعتها مثلها كان بقاء الشاب في نفس العمارة سببا وجيها للأرق سواء بمزيكا أو بدون مزيكا!

تقريبا كل شيء في مكانه، المنزل مرتب إلى حد الملل، علي لم تواتيه الفرصة لممارسة ألعابه هذا النهار، الحياة ساكنة كوجوه الماعز في لوحات الكانافا على الحوائط، البلوز الكريمي معلق على شماعة قريبة منذ أيام استعدادا للمناسبة، للحظة تذكرت أمر العصفور وفكرت في ساعة من الراحة، حاولت لكن اتصال هاتفي جاء من عمتها تهنئها بعيد زواجها وترسل لـــعلي ألف قبلة وقبلة، شكرت عمتها وواصلت النوم غير أن هجمات الـــبلوز التي عادت أشد مما قبل أخافت العصفور وجعلته يفر

من أحلامها.

أمضت ساعة أخرى أمام المرآة تتأكد من مظهرها الذي حاولت الحفاظ عليه بصعوبة خلال ست سنوات. تبحث عن أي هفوة قد تعكر صفوها اليوم، زرار محلول، أو طرف حمالة يبرز من الكولة الواسعة، أو فسفوسة في وجهها، أو شعرة من رأسها تستعصى على المثبت. ترددت كثيرا قبل أن تغادر المنزل بالبلوز الكريمي كما طلب سامح منها، لم يعد يناسبها تماما، بدا ضيقا لدرجة تكشف عن تفاصيل جسمها وتبرز صدرها الوفير، رغم ذلك لم تكن مستعدة لارتداء شيء آخر. يجعلها ذلك البلوز الذي حال لونه تستعيد ذكريات جميلة لازالت تقاوم بها ملل الحياة الزوجية. تشعر أنها تتجدد أو تعود شابة تتوه في شوارع القاهرة وتتصيد الحكايات الغرامية من أفواه البنات في ممرات الجامعة دون أن تشركهن في أسرارها. لاحظت أن جسمها ممتلئ قليلا عما قبل، ثمة سحاب تحت عينيها ناتج عن الأرق المستمر يضفي على جفنيها لون ثمرة مشمش، لكنها واثقة من عدم ظهور شعرة بيضاء واحدة في رأسها إلى اليوم، إنها سعيدة وراضية عن حياتها بشكل ما، تزوجت بسهولة من الرجل الذي أحبته من نظرة عين، وعلى خلاف ما تدعيه قصص الحب التي تنتهي نهايات مأساوية، تفضي بأبطالها عادة إلى التعاسة، والجنون، والانتحار، استطاعت التغلب على تفاصيل الزواج الرتيبة بالعمل (الذي كان أكثر رتابة على حد قولها فيما بعد) خاضت محاولات طبية فاشلة على مدار عامين قبل أن تستجيب السماء لدعاها وترزقها بالطفل الذي تمنته، علي، يستطيع أن يبدد سكون المنزل ويشيع الحياة في أرجائه. بمرور الوقت تشكلت ملامحه الملائكية كصورة من أمه،

رغم ذلك كان وجهه البريء يخفي وراءه جنيا صغيرا. تعلم السير قبل أن يستطيع تكوين عبارة واحدة، وكان صمته غالبا بمثابة ستار لأعمال شيطانية أخرى من قبيل السير على سور الشرفة والنوم على جهاز التكييف المعلق على ارتفاع ستة طوابق، وإفساد مجموعاتها الدراسية بالاختباء أسفل المائدة المستطيلة التي تمثل حلقة الدرس، وعقد رباط أحذية البنات في بعضها، أو عض سيقانهن، أو وخزها بإبرة، والأهم من ذلك السطو على نظارتها الطبية كلما سنحت الفرصة، وفي أحيان أخرى السطو على دفاتر الطالبات حيث يترك على صفحاتها رسوما بدائية لشموس وكواكب وشخابيط أخرى بلا معنى واضح، لا تكتمل فرحته إلا بالحصول على الاثنين معا، الدفاتر والنظارة، وفي بعض المرات يستعين بمساحيق التجميل المخبأة في الصوان حتى يتمثل أمه ويحاكي أداءها أثناء التدريس عندما تتوقف بإصبعها على سطر معين، أو تشهره في وجه طالبة لازالت تخلط بين صلاح الدين الأيوبي وبين أحمد مظهر، أو تنقر به على زجاج المائدة للفت انتباه البنات.

عيناها لا تغمضان عنه لحظة. نادرا ما كان يتكلم لكنها استطاعت ترجمة نظراته وإشاراته إلى أوامر تسارع بتنفيذها قبل أن يبدأ في البكاء ولا ينتهي. كان سامح يندهش كيف تتحول يداها لأداة تلبي حاجات الطفل بواسطة لغة سرية غير الكلام، أحيانا كان يغار من ذلك التواصل الخفي بين الطفل وأمه، ويتساءل لو كانت زوجته قادرة على قراءة أفكاره ومشاعره ورغباته التي لا يبوح بها عادة. كان علي يمثل أقصى طموحاتها، آخر أحلامها المتواضعة وقد تحقق بعد عناء، ربما منذ ذلك الوقت لم تعد تحلم أو تشغل بالها بمشاريع ومخططات وهمية كتنظيم

رحلات سنوية لاكتشاف العالم كما هو، ليس كما تروي عنه كتب التاريخ، والتعرف على بلاد الله في وجوه الخلق، و في أكلاتهم الشعبية الرخيصة، وأداءاتهم المتنوعة في فنون العيش والحب والسباب، وفي طرق احتفالهم بالحياة والموت، والألعاب البدائية التي يبتكرها أطفالهم في الشوارع بالعند في الفقر، واللهجات التي يستخدمونها في حياتهم اليومية نكاية في معاجم اللغة ــ تلك أحلام بعيدة ولى عهدها، أو كما تقول ماجدة «هي نوبة رومانسية تصيب الصبيان والبنات مثل برق خاطف في مرحلة من العمر، ومن أعراضها الشعور المستمر بالقدرة على التحليق والتحرر من قانون الجاذبية والتخلي عن أي روابط تتعلق بالواقع اليومي» والغريب أن سامح لم يرفض اقتراح السفر، فكر أن السفر قد يعيده إلى الكتابة. كان يراوده منذ الطفولة خاطر رومانتيكي بوجود لحظة معينة ــ يصعب تحديدها ــ سيقرر فيها أن يهجر العالم ويتفرغ للكتابة، يتخيل ردود أفعال المقربين إليه فيعتاد على الفكرة أكثر، يشعر بالانتصار على وصايا أبيه، و«زغرات» أمه، وجدول الضرب، ورخامة سناء وعصابية ميس بسمة ــ والحق أنها كانت تبتسم مرة واحدة أول كل شهرا ــ هذه المرة فكر في الانتصار على مديره، وعلى ذكرياته التعسة، وعلى شلة المقهى «رفاق اللاي» كما يطلق عليهم، ولإيمانه بأن تلك اللحظة السحرية التي يتحدد فيها معنى وجوده حتما ستجيء، لم يهتم بالأمر حتى حدثته عن رغبتها في السفر، لكنها لا تفكر اليوم في الهرب من عالمها الصغير، على العكس تستعد لإطفاء شمعة جديدة احتفالا بزواجها السعيد، وتتصل بسناء على عجل كي تعتذر عن الحضور وتطمئن على علي، حتى لا تتأخر على سامح أكثر

من ذلك.

لاحظت أن معظم الشباب والبنات على كوبري قصر النيل لا تتجاوز أعمارهن العشرين، وبالطبع فإن وقوفها وانتظارها وحيدة وكأنها على موعد غرامي هو أمر لافت للانتباه، وقد تضاعف إحساسها بنظرات المتطفلين عندما تأخر سامح، أحيانا كان يتعمد التأخير في هذا اليوم بالذات ثم يظهر فجأة محاولا إضفاء مسحة عفوية على اللقاء، وكأنهما يلتقيان لأول مرة. هذه المرة تأخر أكثر من اللازم، حاولت الاتصال به لكن عطل في الشبكات حال دون ذلك، كان عليها الانتظار لساعات وقفت خلالها تسترجع ذكرياتها مع المواعيد المضروبة.

— ٢ —

لم تفهم ما قاله الطبيب بالضبط، الكلمة الوحيدة التي خرقت أذنها هي كلمة «غيبوبة»، بدت صادمة مثل كابوس قديم يعود للظهور أمامها فجأة حتى أن وقع الكلمة جعل صوت الطبيب يتلاشى ولم تنتبه لما جاء على لسانه بعدها، اكتفت بالتطلع إلى حركة شفتيه مثل سجين ينتظر حكما بالموت على شفاه قاض عجوز، عيناها مشدوهتان على اتساعهما، وهي تجيب على أسئلته الكثيرة حول تاريخ سامح المرضي بإيماءات طفيفة، أكدت أنه لم يعاني يوما من أمراض كالصرع أو البول السكري أو ارتفاع الضغط، اللهم إلا نزلات البرد الموسمية. لم تنتبه للطبيب الذي أنهى حديثه وانصرف عندما قدمت لها الممرضة أكياس من النايلون وكمامة ترتديها على عجل قبل أن تصحبها إلى غرفة العناية

المركزة وهي منوّمة تماما. تفكر في الاتصال بسناء وتأجيل عودة علي، في إخبار الطبيب الخاص بسامح، في إحضار بعض الثياب من المنزل، وفي الاعتذار لمديرة المدرسة عن الحضور لأيام وربما لأسابيع مقبلة، وبين هذه الخواطر التي مرت على ذهنها سريعا كانت تستعيد ومضات خاطفة من حياتها مع سامح. فكرت أن مفاجأة من هذا النوع هي آخر ما تتمناه امرأة في عيد زواجها. بعد محاولات عديدة للاتصال به فوجئت بصوت غريب يرد عليها، يخبرها أنه زميل سامح في البنك، وأنهم اضطروا لنقله إلى أقرب مستشفى عقب سقوطه المفاجئ، وأضاف أنه لم تبد عليه أي بوادر للتعب من أول اليوم، على العكس كان يضحك ويثرثر ويدخن ويتبادل النكات مع الموظفين، ويحدثهم من حين لآخر عن كوميديا الحياة الزوجية. أكد تقرير الطبيب أن الغيبوبة نتجت عن إصابة الرأس إثر ارتطامه بالأرض، وأمر له بجرعات الكورتيزون للتخفيف من الورم، أما سبب السقوط فلم يتوصل إليه أحد. ماذا فعلت حتى تنتهي أحلامها البسيطة ــ والبسيطة لدرجة طالما عرضتها للسخرية ــ في طرفة عين. لم ترتكب ذنبا، لم تخالف يوما وصايا أمها أو أعراف القرية أو تعاليم الدين أو المناهج الدراسية التي تلقنها للبنات، حتى الإرشادات العامة وآداب السلوك المطبوعة على ظهر كتاب القراءة على غرار «لا تؤجل عمل اليوم..» و«اغسل يديك جيدا..» و«حب ما تعمل حتى ... تلتقي!»

.

كان سامح ممددا في الفراش على جنبه، رأسه منخفضة حفاظا على مجرى التنفس من الفم، فيما يتصل بأنفه أنبوب التغذية. للحظات أحست أن قدماها لا تعينها على الوقوف. هذه الأقدام دائما ما تخذلها.

تذكرت عيد زواجها الثالث عندما أصر سامح على المشي من سينما أوديون إلى منزل الزوجية في عين شمس، لم تحتمل قدماها قطع نصف المسافة، توقفت للاستراحة بين محطة وأخرى وفي النهاية حررت قدميها من الحذاء واستسلمت لسامح يحملها على ذراعيه دون اكتراث ببرودة الليل والآداب العامة بشكل أثار ضحكاتها ولفت انتباه تجمع الشرطة في أحد الكمائن بجسر السويس. ليلتها انتبه سامح لأن معظم الأفلام الرومانسية التي رأى فيها البطل يحمل البطلة ويتقدم من الكاميرا بخطى الفاتحين لم تتعرض لذكر شيء عن كمائن الشرطة الموزعة في شوارع المدينة، ربما لأن مجرد حضورها كفيل بتشويه عدد وفير من المشاهد صارت من كلاسيكيات السينما.

نصحتها سناء كما نصحها الطبيب بمغادرة المستشفى ومتابعة الحالة من المنزل، خاصة وأن بقاءها لن يفيده في شيء، والأولى بها في هذه الحالة الاهتمام بعلي والحفاظ على كيان المنزل والاستمرار في العمل تحسبا لأي ضغوط مادية ناتجة عن سقوط سامح المفاجئ. غادرت المستشفى باستسلام وسناء تقودها من ذراعها إلى السيارة، الجو يزداد برودة وهي لم تحتاط بملابس كافية. لم تقبل دعوة سناء للمبيت في ضيافتها، ربما لم تتوقع الصمت المخيف الذي ينتظرها في المنزل، ورغم غياب الموسيقى الواردة من منزل جارتها على غير العادة فقد عافها النوم حتى الصباح. كانت ضعيفة ومنهكة أكثر من أي وقت مضى، وتشعر بحيرة طير يرحل عن عشه المهدم، فيفكر تارة في بناء عش جديد، وتارة في حنينه لدفء العش القديم، وتارة في مصير صغاره المعلق بين مأوى وآخر، وتارة في انفعالات الريح التي قد تعود للإطاحة بالأعشاش التي يمضي

عمره في بناءها للأبد، ماذا يفعل طير في تلك المسافة الفاصلة بين حياة تتداعى، وحياة أخرى مجهولة تماما تستلزم أجنحة أقوى ومخالب أصلب ومهارات تفوق طاقته، باختصار ورغم أنها لم تصدق حتى هذه اللحظة إمكانية غياب سامح عنها ــ ولو تحت سلطة الغيبوبة ــ لم تستطع أن تتحاشى التفكير في حياتها بدونه. حاولت أن تميته في خيالها حتى تألف غيابه. لقد علمتها عمتها أن تهتم بعملها تحسبا لهذا اليوم، لكن لم تعلمها كيف تنسى رجلا كان حبها الوحيد قبل أن يكون زوجها. كيف تقبل بالتعايش مع ذكراه الجاثمة فوق صدرها ورائحته الموزعة في أرجاء المنزل. اتصلت بها سناء في حوالي الواحدة صباحا تسأل عن حالها، مكالمة قصيرة تغلب عليها مساحات كبيرة من الصمت، اتفقت معها على الذهاب إلى المستشفى صباحا، وبشكل لا إرادي وجدت نفسها تبحث عن ألبوم الصور في أدراجها لتستعيد ذكرياتها مع سامح.

الاثنين ١/ ١٢ /١٩٩٧

وقفت تتطلع بشوق للمراكب الوادعة عندما بدأ يلاحقها بائع زهور على كوبري قصر النيل بعبارات الغزل التي لم تصادفها من قبل في كتب المدرسة. انتابها الخجل فاحمرت أرنبة أنفها قليلا وابتعدت بخطوات عسكرية، تلعن المواعيد المضروبة وأكاذيب صديقتها التي طالما ورطتها في مواقف مشابهة. منذ ساعة تقريبا وهي تذرع الكوبري بملل وتحاول دفع التخيلات السيئة عن ذهنها، مرت عليها صور خاطفة لماجدة نائمة دون اكتراث بصراخ المنبه، أو مدهوسة تحت إطار سيارة مندفعة لم تنتبه

لعبورها المفاجئ، أو مستندة برأسها إلى صدر جارها الملاكم الأعزب كما تمنت دائما، أو تتحدث إلى المرآة كعادها في نوبات البكاء. لم تكن ماجدة صديقتها الوحيدة فحسب، فهي دليلها المخلص في شوارع القاهرة التي لازالت تخلط بينها إلى اليوم، كاتم أسرارها، ومستشارها الخاص في آداب الحديث واللياقة والسير ــ بطريقة أكثر نعومة ــ وفي انتقاء ثياب جديدة تليق بحياها في تلك المدينة الواسعة، والأهم من ذلك فإن ماجدة هي الوحيدة في الجامعة التي لم تسألها يوما عما تفعله في حياها سوى المذاكرة، والحديث عن المذاكرة، والمزيد من المذاكرة، الوحيدة التي لم تسخر من تسريحة شعرها على موضة «فاطمة رشدي»، لذا حاولت أن تتخيل لماجدة مصيرا أفضل يبرر غيابها. في الغالب فضلت ماجدة أن يكون لقاءها الأول بفارس أحلامها ــ بعد شهور من المشاغلة والسهر ــ على انفراد، ربما لم تجد سببا للخوف من نوايا الحبيب المنتظر. فضلت أن تخوض التجربة وحدها واقتنعت مؤخرا بكلام صديقتها عن خصُوصية اللقاء الأول، وأن الشاب في أسوأ الأحوال لن يعزمها على «حاجة أصفرة»، ماجدة لم تبرأ من ترددها بعد. تعب قلبها وبح صوت فيروز خلال الشهور الأخيرة في محاولات مستميتة للفت انتباه الجار، ولم يَنْتبِها منه في كل مرة سوى صفقة الشيش، طالما حكت لصديقتها عن جسده المفتول، وابتسامته الواسعة وعينيه المرسومتين بكحل ربّاني. مرت الأيام وهي تدون مواعيد حضوره واختفائه من المنزل الذي يعيش فيه مع أصدقائه بالمشاركة، حتى بدأت في كتابة الرسائل وإلقاءها في شرفته موثوقة بخيط على قطعة حجر، على فترات متباعدة وغير منتظمة كانت تكتب له رسائل قصيرة وغامضة تعبر عن

مشاعرها المضطربة دون أن تترك توقيعها، وقد ضبطتها صديقتها أكثر من مرة تلتقط الحصى والأحجار الصغيرة من الأرض ولم تعرف السبب، تدريجيا نجحت الرسائل في إثارة خيال الشاب وتساؤلاته حولها. شعرت بالفرح لأول مرة وهي تراقب ردود أفعاله. في البداية لم يهتم بالأمر، تعامل معه كمزحة عابرة، حتى قررت ماجدة أن تتضمن رسائلها التالية بعض المعلومات التي تعرفها عن صاحبنا بعد طول مراقبة دون إشارة لأي شيء قد يكشف عن شخصيتها، استمرت على ذلك حتى صارت الرسائل تمثل له كابوسا معادا، بمجرد ما يقطع سكون الليل صوت ارتطام حجر جديد في الشرفة ينتفض متربصا للإيقاع بالمرسل المجهول الذي يعابثه، تراه من مخبئها وهو يتلفت في الشرفة المقابلة والفضول يؤرقه، أحيانا كان يسبقه في العثور على الرسائل أحد شركاءه في المنزل وبذلك تحولت المزحة إلى خلاف بينهم حول الشخص المقصود منهم بالرسائل، قررت في رسالتها الأخيرة تحديد موعد للقاء، ويبدو أن الأمور قد سارت على ما يرام.

ربما تبدأ ماجدة الآن مراسم عشقها معه في مكان بعيد، يأكلان الآيس كريم ويتحدثان بخصوص الرسائل ضاحكين من ألعاب المراهقة تلك التي ستصير أروع ذكرياتهما فيما بعد، وستضحك ماجدة كثيرا ــ وهي تروي القصة لآخر أحفادها ــ من جلستها بالساعات على أمل أن يطل من الشرفة لأي سبب. تخيلت ماجدة عجوزا تحتفل بعيد زواجها الثلاثين في مساء خريفي ولازالت تحتفظ بقوامها الرشيق رغم تهدل بسيط في كتفيها، حريصة على الظهور في الصور العائلية بابتسامة عاشقة سيتناقل

الأطفال أسطورة حبها لسنوات وتعيش في خيالهم حتى تنبت لها أجنحة بيضاء وهالة ضي، وسيشاع أنها تزور المحبين في الليل لتترك في شرفاقم رسائل حب جديدة وتعاوذ التحليق، وسوف تترقب البنات ظهورها مع هطول المطر. ليكن، يبدو أن ماجدة سعيدة بانتصارها أخيرا حتى أنها نست صديقتها تماما، وحدها تروح وتجيء هربا من مغازلات المارة وباعة الورد.

أما سامح فربما لانشغاله بالتطلع لوجوه العابرات لم يلاحظ في البداية سقوط دفتر محاضرات ـــ مزين بصورة قطيع من الزراف في سهل أخضر ـــ من يدي فتاة مرتبكة مرت من أمامه في لمح البصر، وعندما انتبه للدفتر والتقطه بدافع الفضول كانت الفتاة تختفي بين المارة بخطوات سريعة، فلم يجد وسيلة للحاق بها إلا أن يناديها بالاسم المكتوب على غلاف الدفتر بخط نسائي رقيق، الاسم الذي جعل قلبه ينتفض من رقاده للحظات.

صفاء.

في المسافة من كوبري قصر النيل إلى مطعم صغير بأحد ممرات طلعت حرب عرف من صاحبة الدفتر أنها مغتربة تدرس التاريخ بجامعة القاهرة، وتقيم في مترل عمتها بشبرا. أثنى سامح على اسمها الملائم تماما لصفحة وجهها، وعلى الصدف السعيدة، وعلى الزرافات الهائمة على سطح دفترها. استطاع الإيقاع بها ببساطة، عندما التفتت على ندائه كان يلهث ويؤنبها بنبرة خشنة لأنها لم تسمعه، أو تنتبه لبكاء الزرافات التي سقطت منها وتجرّحت، لم يكلفه الأمر أكثر من مزحة صغيرة لتبتسم وتستسلم للتسكع معه وطرد خيالاتها الشريرة حول مصير ماجدة، وقتها

كان سامح في الثلاثين وإن بدا أكبر قليلا، عيناه جذابتان لونهما أقرب للرمادي، تبدو خابية في لحظة ومخيفة في لحظة أخرى، عاد بائع الزهور يعرض بضاعته بإلحاح فانتهز سامح الفرصة لشراء باقة نرجس قدمها لها على مرأى من العشاق المتناثرين على امتداد الكوبري، وسائقي الحناطير والأشرعة البعيدة، ابتسمت خجلى فأخبرها أن الزهور ليست لغرض ــ قليل الأدب ــ في نفس يعقوب، وإنما حمدا على سلامة الزرافات، ورأى أن يغير مجرى الحديث رفقا بإيقاع قلبها المتسارع وأنفها الذي صار بلون حبة طماطم طازجة تليق بالظهور على ملصق لمعلبات صلصة أمريكية. تحدثا عن المراكب التي طالما تمنت صفاء ركوبها، والأنهار التي يخشاها سامح لحد الرعب، والشمس الربيعية التي رافقتهما إلى المطعم وانسحبت كما جاءت على غير ميعاد. حافظت على ابتسامتها وهدوئها كأنها تتبرأ من الطفلة القروية التي لازالت تعيش تحت جلدها، والتي تواجه كل ما تقدمه لها المدينة بقلب مضطرب وأنف بلياتشو. لم ترفض السندوتشات التي يدعوها إليها شاب غريب لأول مرة، واستمر الحال على ما يرام حتى تلامست أيديهما قرب الأطباق بشكل عفوي، فأحس سامح بالبرق الذي شملها للحظة والحمرة تتسرب شيئا فشيئا لتظلل وجهها بالكامل. حاولت أن تقتسم معه الحساب لكن الجرسون شيعها بابتسامة مهذبة، فأدركت أن سامح تولى الأمر. شكرته على الورد والطعام ونزهة الكورنيش، دونما تتعرض لذكر شيء عن الضوء الذي أشاعه اللقاء في صدرها، لكنه أخرج من جيبه تذكرتين لحفل السادسة مساء بسينما أوديون، ادعى أن صديقا له تخلف عن موعده ودونما يدع لها مجالا للتفكير اصطحبها للسينما، وفي الطريق اقترح أن

يختارا أسماء مناسبة للزرافات.

«هستيريا» ، فيلم غير ملائم نوعا ما بالنسبة لاثنين على مشارف الحب. بينما يتبادل أحمد زكي القبلات مع عبلة كامل عبر الباب الزجاجي المغلق لمحل العصافير تذكر سامح أول قبلة تذوقها في حياته، تفصله عنها الآن سنوات طويلة جعله المشهد يستعيدها من خلف الزجاج. للحظات غاب عما حوله، نسي الفيلم والفتاة الجالسة إلى جواره تداري خجلها بالتحديق في شاشة العرض. لأول مرة أحس بالزجاج يحول بينه وبين تفاصيل حياته الصغيرة. منذ شهور كان قد رأى نفسه في حلم مشابه، يتوقف أمام محل ملابس نسائية، ويتطلع لصورته المعكوسة على زجاج فاترينة العرض، بدت صورته شاحبة بفعل الزجاج المغبر مثل صورة قديمة بتأثيرات السيبيا، أحس بالخوف فابتعد عن واجهة المحل، استدار مواصلا طريقه لكنه كان يلتفت من حين لآخر فيزداد خوفه إذ يرى صورته المعكوسة لازالت ساكنة على سطح الزجاج، يتحرك، لكن الخيال الشاحب لا يتحرك معه، يركض بعيدا، ويظل خياله الزجاجي على حاله، كيف لم ينتبه لهذا الحلم من قبل؟.. تسللت يده في حذر تلامس يدها فارتعدت، ابتسم من ردة فعلها، أدرك أن الزجاج لم يحل بينهما بعد، فكر أن يودع خيالاته، ربت على يدها وسحب منها الدفتر دون مقاومة، قلب في صفحاته حتى استقر على صفحة بيضاء ترك فيها كلمة للذكرى ..

«إلى صفاء

التي انتظرها طويلا ...»

لابد أن الدفتر لازال موجودا في مكان ما، في أحد الصناديق الصغيرة

التي يحتفظ فيها الزوجان بتذكاراتهما. على حواف الصورة تعرجات تضفي عليها مسحة قدم لا تتوافق مع التاريخ المكتوب عليها، آثار شد وجذب وخدوش. الصورة التقطها لهما مصور عابر على كوبري قصر النيل ليورطهما في دفع ثمنها، تبدو على وجهها في الصورة علامات القلق، وتحدق بذعر في اتجاه العدسة التي بدت لها عينا غريبة، فضولية ومخيفة، تقتحمها على غفلة، وتذكر أنها انفعلت وكادت تبكي لولا دفع سامح ثمن الصورة فانتزعتها من يد المصور كي تمزقها، حاول أن يثنيها عن ذلك، أخذا يتجاذبان الصورة كثيرا مما أهلك أطرافها، استسلم في النهاية خوفا على الصورة فتركها ورجاها ألا تمزقها، ربما رغبت في استعادة تلك اللحظة العابرة من حياتها في وقت ما، وكان لزاما عليها بعد ذلك أن تدسها في كتاب الموتى كي لا تقع عليها عين عمتها، لذا فالصورة مثنية حتى الآن بشكل متقاطع رغم أنها حاولت تقويمها بالمكواة فيما بعد. صورة أخرى تجمعها بسامح في ملابس الزفاف، هذه الصورة تحديدا (التي التقطتها سناء من مسافة قريبة للعروسين) تشعر كلما نظرت فيها بأن الوجه في الصورة لفتاة أخرى لا تشبهها، وجه يشبه بالتة ألوان منحتها الإضاءة المنبعثة من مصدر قريب خلف العدسة لمعانا لا يطاق. الشيء الوحيد الذي يربط بينها وبين الفتاة في الصورة تعبير غريب مرسوم على وجهها يليق بطفلة تائهة لا زال يلازمها. جسدها مفكك وعيناها تتحرقان، لابد أنها تمر بحالة بين الصحو والنعاس تسمح لها بالتنقل بين تفاصيل عمرها من صورة لأخرى، حالة تشبه الدوار أو الوقوع تحت تأثير المخدر.

الثلاثاء ١/ ١٢ /١٩٩٨

أول ليلة في منزل الزوجية، وقفت في الشرفة تتطلع إلى نوافذ الجيران الموصدة، والشارع الخالي من أي حركة، ديسمبر يغلف المشهد بنداوة كثيفة، أحست بخفة هائلة جعلتها تثب على أطراف قدميها وتتمطى بنعومة بالون طليق يستسلم لحركة الريح، ثم تلتفت بنصف استدارة ــ إلى الحجرة ــ على صوت سامح الذي يتربص بها منذ دخلت إلى الشرفة محاولا اختيار زاوية مناسبة لالتقاط صورة لها تخليدا لأول ليلة زواج. هذه المرة يبدو من ابتسامتها في الصورة أنها كانت تعلم أن سامح يصورها، تنظر إلى الكاميرا بتواطؤ قبل أن تكمل استدارتها نحو الحجرة، ظلام الحجرة يخلف ظلا داكنا على جسدها وضوء الفجر ينعكس على سور الشرفة ويضفي مسحة نور على النصف الظاهر من وجهها وأطراف القميص الخفيف وذراعيها المرفوعتين لأعلى. بعد سنوات تطلع سامح إلى الصورة طويلا وشعر أن صفاء لم تكن تتمطى بوداعة، وإنما توشك على التحليق، تبدو سعيدة وكأنها تفتح عينيها على العالم لأول مرة، جسدها لازال مخدرا بالنشوة، لم يبق من صدى الأغنيات وضحكات المدعوين والزغاريد المتطايرة، ورنين الملاعق والكئوس وطرقعات زجاجات الكولا سوى صداع طفيف لم يفلح حمام الصباح في محوه. لاحظت على وجهها المعكوس بصفحة المرآة علامات إجهاد وأرق لايرجع إلى ضجة العرس ومتاعب السفر ولمسات عمتها على جسدها والأصابع الثقيلة وأبواق السيارات المزينة، ومداعبات سامح المُسكرة فحسب، إنما انتقالها ــ عبر تلك الطقوس ــ إلى حياة جديدة تحاول التأقلم معها مثل ثوب جديد تضبط حركتها جيدا كما

علمتها ماجدة كي لا تتعثر في ذيله.

الأثاث الذي انتقاه والدها من دمياط لازال بلمعته. الحوائط حولها دافئة تشع برائحة الطلاء وزهوه. كل ماحولها يشير لأن ما يحدث ليس حقيقيا بشكل ما، أقرب إلى ديكور يمثل عش زوجية مثالي، أو حياة ساكنة لم تستعمل بعد، حتى ملابسها الجديدة التي أصر سامح على شرائها تبدو من شروط هذا الانتقال. كأن لقاءهما الأول لم تمر عليه لحظات. فكرت كيف دخل سامح حياتها في لحظة وإذا به يحيل كل ما حوله بلمساته إلى مشهد سحري مثل قديس، يظهر فجأة ويختفي فجأة، في الشارع، في الجامعة، في المترو، وحتى في محل البقالة المقابل لمنزل عمتها، في كل مرة يترك لها هدية جديدة تؤكد وجوده ويختفي دون اتفاق على لقاء آخر، وفي كل مرة يعرف شيئا جديدا عنها، الأحلام التي تشاغلها، الأمسيات التي تقضيها مع عمتها في لعب الكونكان، ألبومات فيروز التي تتبادلها مع ماجدة، درجات الأزرق التي تحبها، القهوة التي تفضلها بالحليب، المراكب التي ترسمها عادة على حواف دفاترها بالرصاص، إلى آخر التفاصيل التي كون سامح منها صورة عن محبوبته، أما هي فلم تحاول أن تعرف شيئا عنه، سعيدة بالطيف الذي يتبعها ليهديها عطورا ودمى وروايات حب تسهر على قراءتها دون أن تحاول الاقتراب منه. عادت من الجامعة ذات نهار لتجده يلعب الكونكان مع عمتها، وبعد سلسلة متواصلة من الهزائم ــ أدركت خلالها العمة أن البعيد «قماريّ» ــ استسلمت لمطالبه ووعدته أن تفاتح أخيها في الأمر. لحظتها لم يعد سامح عصفورا وهميا تفتش عنه في أحلامها، بل حقيقة راسخة أمامها من لحم ودم، وستتأكد من ذلك

أكثر خلال الأيام الأولى للزواج عندما يتمدد جوارها في الفراش عاريا من سماته السحرية.

مثل أمير هارب من حكاية شعبية قدم سامح في شهور قليلة الضمانات الكافية لكسب ثقة أهلها، لم يكلفه الأمر سوى تجديد المنزل الذي ورثه عن أسرته وتطهيره من ذكريات عزوبيته، والاستعانة بالنقود التي ادخرها لدى سناء لذلك اليوم، وإذا كانت صفاء قد هيئت نفسها منذ ليلة الاثنين ١٩٩٧/١٢/١ لأميرها المنتظر برومانسية مطلقة فإن والدها لم يكلفه شيئا أكثر من ضمان حياة آمنة لبنته، خاصة بعد أن وفر سامح الشقة والسيارة والمهر والنوق الحمر. بينما تجري المفاوضات بينهما حول كل قشة تتعلق بالزواج، كانت صفاء غارقة في حلم طويل تحاول رسم صورة لحياتها الجديدة، لم يساعدها حيال ذلك سوى عمتها العجوز، حتى ماجدة لم يعد لها أثر منذ انشغالها بافتتاح العيادة التي ستدفن فيها حياتها بعد ذلك، لقد أدت عمتها دورها على أكمل وجه، لو كانت أمها على قيد الحياة لما فعلت. تعرف أن خبرات أمها كانت قاصرة على مواقد الغسيل وجدل الضفائر وتربية الطيور كما يليق بامرأة لم تغادر قريتها إلا لزيارة الأولياء، أما عمتها فاستطاعت أن تمدها بالوصايا اللازمة للحياة التي تنتظرها «الراجل من دول له مفتاح لو ملكتيه هتكسبيه طول العمر.. اللي يمشي في المنيا ما يمشيش هنا.. هنا صباح الخير يا جاري انت ف حالك وأنا ف حالي.. طول ما جوزك جنبك عمرك ماهتحسي بعيون الخلق عليكي ف الرايحة والجاية.. وأنا كان إيه اللي رماني ع المر بدل المرة اتنين ؟..» كانت المياه تنساب على جسدها مع كلمات العمة التي بدت في البخار الكثيف مثل عرافة

عجوز «ماتبقيش خايبة وتآمني له للآخر.. زيد زي عبيد زي نطاط الحيط.. لازم تعمي له عينيه عشان مايبصش لغيرك.. لو قال لك مافيش شغل إوعي تطاوعيه.. طول ما فيه شغل في جيبك قرش زي اللي في جيبه.. الشغل برضو هياخد من وقتك بدل ما تفضلي لازقة له لحد ما يزهد فيكي..» كان هجومها على سامح يؤلم صفاء أكثر من انتزاع شعيرات ساقها الخفيفة بعجين السكر، رغم ذلك كان صوتها دافئا كحمام العرس، كأنها أمضت حياتها في إعداد هذا المونولوج من وحي تجاربها، ولأنها ترملت مرتين ولم يعش لها أطفال، كانت سعيدة لأول مرة وقد وجدت لها ابنة تهديها خلاصة عمّرها مثل كل العجائز «بلاش تخيبي خيبة عمتك وتقعدي في البيت.. تربي طياز وتكلمي الحيطان.. يا بت إوعي إيدك خليني أخلص.. وش كسوف قويّ.. أمال هتعملي إيه مع المخفي لما...» وانتهت عبارتها إلى ضحكة لم تفقد طراوتها رغم السنين.

أزاحت الصورة بعد أن أعادت النظر فيها وأحست لأول مرة بالشؤم من السواد الذي يظلل قامتها، وذراعيها تميلان للوراء قليلا كأنها على مشارف السقوط بصرف النظر عن قراءة سامح الشاعرية للصورة. لم تكن تفكر في التحليق لحظتها، الأرجح أنها كانت تفكر في السقوط!

— ٣ —

أدركت أن الغيبوبة ستستمر إلى يوم غير معلوم، وعلى الحياة بدورها

أن تستمر. لم يعد هناك مبررا لحضورها اليومي إلى المستشفى وانقطاعها عن المدرسة وتأجيل مجموعاتها الدراسية. الأطباء يخبرونها أن سامح يعاني من حالة فقدان تام لرد الفعل، يعدونها بأن يجتاز الأزمة ويعود لممارسة حياته الطبيعية، لكن لا أحد يعلم متى، وعمتها ترى أن العمل سيخفف من ألمها أو على الأقل قد يشغلها عنه؛ والغريب أنها عادت للعمل بحماس أكبر، كأن شعورها المكثف بالوحدة قد تحول لطاقة غضب حاولت تفريغها في العمل حتى لا تجد الوقت للتفكير في شيء. كانت أبسط فكرة تمر على ذهنها تقودها مرة أخرى للتفكير في السقوط، إحساس غامض بعدم التوازن قاومته بالتسكع مع علي واصطحابه للأماكن التي يتوق إليها ـــ والتي كانت تتهرب من الذهاب إليها كلما ألح قائلة «لما ننام ونصحى!» ـــ والاشتراك معه في تمثيليات هزلية يتبادلان خلالها الأدوار، مثل تلميذة مذنبة تولي وجهها للحائط وذراعيها للسماء وتتظاهر بالبكاء عندما يعبطها، أو عندما تختبيء خلف قطعة أثاث فيفتش عنها كي يعيد إليها حذاء السندريلا ويحملها على حصانه الافتراضي الذي كان في الغالب مسند الكنبة، يحكم عليها أن تؤدي مأساة شهرزاد مستعينة بإيشارب طويل منقوش بزهور ست الحسن ابتاعه لها سامح ذات صيف من سوق ليبيا، فتسهر على سرد حكايات خيالية يتدخل في مسارها أحيانا بإضافة فكرة أو سؤال اعتراضي أو محاولة للوصول لنهاية مرضية، يشتبكان فوق السرير الذي يتحول إلى حلبة مصارعة، ويحلقان في أرجاء المنزل على متن المفشات المسحورة. انتهز علي الفرصة لاستدراجها شيئا فشيئا إلى عالمه واصطحابها للسيرك لمشاهدة استعراضات الدببة، وألعاب المهرجين، والكلاب الجريفون

التي ترقص على الحبال، وفالس اللبؤة مع مروض الوحوش، وعناق الأفاعي، وشطر امرأة إلى نصفين ثم إعادة جسدها كاملا مرة أخرى، وإخراج سروال داخلي لسيدة من الجماهير من جيب متفرج آخر، والاستماع إلى ببغاء زنجباري يحفظ أغاني إديت بياف عن ظهر قلب. وفي حديقة الحيوان شاهدا الكوبرا تواصل تغيير جلدها بجلد أزهى، وحياهما الفيل العجوز بإشارة من خرطومه، وتجول علي مرتين على ظهر السيسي، وضحكت صفاء من رؤية زوج من السلاحف المعمرة في ضخامة مقاعد الفوتيل يتناكحان بإيقاع رتيب مخلفان أزيزا حادا ناتجا عن احتكاك الحراشيف، ولم تكن قد فكرت من قبل كيف لمخلوقات مثل السلاحف أن تمارس الحب. أما الكائنات الليلية كالضباع والبوم وغيرها فكانت ترقد في الأقفاص مقتولة من التعب، وعندما أصر علي على المبيت في الحديقة إلى أن تصحو الضباع وتبرق عيون البوم وتلهو السباع في مضاجعها أخبرته أن إدارة الحديقة تترك الأقفاص مفتوحة طوال الليل كي تتجول الحيوانات بطلاقة بعيدا عن أعين المتطفلين، وفي الملاهي ركبا الصاروخ المتجه للسماء بأقصى سرعة، والعائد بنفس القوة إلى الأرض، والذي ألح علي على ركوبه منذ أن رآه في الإعلان، وأثناء الصعود والهبوط أطلقت صفاء العنان لصرخاتها كي تفرج عن مخزون الهم، ولكثرة الأساطير التي سمعتها عن بيت الرعب المسكون بالأشباح والهياكل العظمية المتحركة، فقد حرمت نفسها من رؤية الجماجم تبتسم في الظلمة، والدماء تتطاير من جثث المسوخ، والغيلان التي تحوم فتسمع فحيحها أقرب إليك من دقات قلبك، وتحية المارد الذي يخلع قبعته ومعها رأسه المبتور، والطيور المفزعة تحلق فوق الرؤوس

ـــ ذلك بأن أغمضت عينيها من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج، على العكس من علي الذي تأثر كثيرا بالأجواء السحرية.

كانت سناء في دهشة من تلك المغامرات الطفولية، تتساءل عن هذه النقلة غير المبررة في حالة صفاء التي كانت منذ أيام معدودة ترفض الطعام والنوم والحديث إلى أحد وتبكي لفقدان زوجها مقدما، أما صفاء فكانت تمارس حياتها بنصف عقل، بينما يفكر نصف عقلها الآخر في سقوط لا نهائي، بمعنى أدق أسلمت جسدها لتلك الممارسات اليومية في حين كانت روحها ترزح تحت ثقل الحزن كسلحفاة حبيسة صدفتها الأبدية. من حين لآخر تذهب إلى المستشفى وتعود بلا طائل، وفي إحدى المرات لم تنجح في الإفلات من علي الذي يتوق لرؤية أبيه ولو لدقائق، يومها حاول الطفل أن ينتزع أنبوب الأوكسجين عن فم أبيه ويطبع على شفتيه قبلة طويلة ظن أنها ستعيده للحياة في لحظة مثل سنو وايت.

اعتادت الجلوس في الشرفة وحيدة حتى تعرفت بمدام أميمة، جارتها بالطابق الأسفل التي تهتم عادة بالزروع المعروضة في شرفتها، تطل عليها من حين لآخر لا لترويها فحسب، إنما لأنها تعامل زهورها كمجموعة من الأطفال تحتاج إلى رعاية دائمة. رغم غرابة أطوارها كانت صفاء تكن لها بعض العطف بسبب هيئتها الشاحبة وسوء سلوك ابنها الوحيد، صاحب الأغنيات المفزعة التي تقلق منامها، ولم تكن صفاء تهتم بشئون الجيران من قبل حتى بدأت أميمة الحديث معها حول النباتات. كانت تتهامس مع أوراق البوتس والريحان كالعادة عندما أحست بعين تراقبها، تطلعت للطابق الأعلى حيث وقفت صفاء تتابع المشهد، فابتسمت

وحاولت أن تداري حرجها بالحديث عن حال الزهور أثناء تقلبات الجو، تتحدث عن الزهور كما لو كانت تتحدث عن صغارها. وجدت صفاء الفرصة لأن تشكو لجارتها من الإزعاج الذي يسببه ابنها لسكان العمارة، ضحكت أميمة «ربنا ما يوعدك بولد زي جو.. ليل ونهار ماوراهوش غير المزيكا، ويا ريتها مزيكا تتسمع.. إيشي ميتال على جاز على خبط ورزع و بلا أزرق.. لما بقينا عايشين في بيت الرعب.. تصدقي بالله يا ميس صفاء إن الورد بيدبل من الهباب اللي بيسمعه؟!!» فكرت صفاء أن جارتها حتما مجنونة، ولم تكن قد قرأت من قبل عن ورود تستمع إلى الموسيقى حتى في ألف ليلة وليلة، ولا سمعت عن التأثير السلبي لهذه الأنواع الموسيقية الحديثة على النبات ـــ لكنها تعرف عن تجربة أن أغنيات «جو» تحرق الدم وتسبب صداع الرأس على أقل تقدير ـــ أما ما لفت انتباهها أن الجارة تعرفها وتناديها باسمها رغم العزلة التي فرضتها على نفسها في العمارة منذ أول يوم، ولم ينته الحوار بينهما قبل أن تطلب أميمة منها خدمة، وقد استدعى ذلك حوارا مطولا مع الشاي في منزل صفاء التي فضلت دعوتها بدلا من الذهاب برجليها إلى «بيت الرعب».

استطاعت لأول مرة أن تتبين وجه أميمة عن قرب، رغم الهزال والحالة الكئيبة فإن ملامحها الرقيقة تكشف عن أنوثة مهملة، عينان خضراوان وأنف دقيق وشعر بني مقصوص آلاجرسون بشكل يستدعي إلى ذهنها صورة «زهرة العلا» في مطلع الثمانينات، تبدو أصغر مما يوحي به مظهرها عن بعد، بالإضافة لارتعاشة طفيفة تصيب جفنها الأيمن للحظات كعادة عصبية، أخبرتها أن جو هو الشيء الوحيد الذي

خرجت به من الدنيا بعد الطلاق، وبالإضافة لسلوكه الغامض الذي فشلت تماما في تقويمه ـــ ولولا القدر المتواضع الذي حظت به من التعليم لآمنت بأن الولد ملبوس بالجن والعياذ بالله كما أشاعت جدته «نبوية» ـــ فهو على مشارف العشرين ولم يكمل دراسته الثانوية بعد، في البداية ظنت أن الموسيقى التي سرقت عقل طفلها هي السبب، وراحت تصب لعناتها ليلا ونهارا على بيتهوفن وتشايكوفسكي ورحمانينوف في قبورهم ـــ وأحيانا على توماس ألفا أديسون مخترع الجرامافون بالمرة ـــ ثم أثبتت الأيام أن جو يجتاز جميع الامتحانات بسهولة ما عدا امتحان التاريخ، ويبدو أن لديه عقدة من التاريخ لا تعرف أسبابها، والأغرب أنه لم ينجح في المواد الأخرى فحسب، إنما كان يحقق فيها أعلى الدرجات، «بصراحة الناس كلهم بيشكّروا فيكي.. وجايز لو قعدتِ معاه كام مرة كدا تنحل عقدته» همت صفاء بالحديث لكن أميمة لم تمهلها «أنا عارفة إنك ما بتديش دروس للصبيان.. وهي دي الخدمة.. فكري وأنا تحت أمرك في اللي تقولي عليه».

أدركت أن للتلصص على الجيران عواقب سيئة، أول القصيد امرأة مهووسة تتحدث مع الزهور في أوقات فراغها تقتحم حياتها بغتة، وفوق ذلك تورطها في محاولة عبثية لاستئناس شاب مخبول وربما «ملبوس» على حد قول جدته، فعلى العكس من أميمة، ورغم نصيبها المتواضع من التعليم لم تكن صفاء تستهين بخرافات العجائز. حاولت كثيرا أن تتجنب هذا الشاب الذي يمر على هامش حياتها، رغم ذلك كان يتسلل إليها مع تيارات الموسيقى والكوابيس الموسمية ويعلن عن وجوده بدخان السجائر المتصاعد من نافذته في الليل برائحة مميزة خمنت أنها رائحة

الحشيش، هاهي الصدفة تقودها إليه من جديد مما يضطرها لإغلاق شرفتها مرة أخرى والاستسلام للوحدة وأعباء المنزل وتلبية حاجات علي. فكرت في محاولة الوصول لماجدة لكن الانقطاع الطويل بينهما منذ فترة التخرج تقريبا جعلها تخجل من فكرة الاتصال بماجدة فقط عندما شعرت أنها بحاجة إلى صديق تفرغ همومها في صدره، بالطبع لا يعني ذلك أنها نست صديقتها طوال هذه الفترة، على العكس كانت تتذكرها كلما سارت في طريق رافقتها ماجدة فيه من قبل، وكلما ضلت طريقا لم تقودها ماجدة إليه من قبل، وكلما لمحت فستانا معروضا في إحدى الفتارين قد يليق بقامة ماجدة الفارعة، وكلما سمعت صوت فيروز يحلق عن قرب، وربما كانت ماجدة تراودها نفس الأفكار أحيانا بخصوص صفاء، إلا أن الحياة لم تعد تسمح باستمرار المودة اللهم إلا مكالمة قصيرة في كل عيد تتبادلان خلالها التهاني وتتفقان على لقاءات لاتتم.

كم تبدو الحياة جافة بغياب سامح. خلا المنزل من دخان سجائره، وأغراضه التي اعتاد أن يبعثرها في الأرجاء لتجمعها هي فيما بعد. أخذت تسترجع ضحكاته، الأوضاع التي كان يتخذها على مكتبه الذي تعامل معه كمكتب وشزلونج في نفس الوقت، في الصالة حيث كان يطالع الجريدة أو يعبث بريموت التليفزيون وهو يستمتع بقضم أظافره، في الفراش حين يتكور بجوارها في وضع جنيني، عند ذلك كانت تقترب أكثر من علي، تحضنه بقوة، وتبكي في سرها، تحاول استبعاد فكرة استمرار الغيبوبة لأيام لاحقة، وفي الليل تتصاعد أغنيات «ميتاليكا» لتذكرها بالولد المشاغب الذي سيقضي على آخر أمل لأمه

في الحياة بفشله وحماقاته والعفاريت التي ــ ربما ــ تركبه، وقد ينتهي بها الحال للحديث مع نفسها علنا كمجاذيب الشوارع بدلا من التخفي بين الزهور. حاولت أن تتجاهل الحالة البائسة لجارتها وتدفن رأسها بين وسادتين لتقاوم الموسيقى الملازمة لها كضيف ثقيل. تداعت إلى ذهنها صورة مروض الوحوش في السيرك، يرقص مع اللبؤة وهي تزأر في وجهه، لا يفصلهما عن بعض إلا سنتيمترات قليلة، لم يستوقفها المشهد من قبل لكن الموسيقى الإيقاعية أعادت الصورة إلى مخيلتها، عندئذ أدركت بمثالية لا تحسد عليها أن أشرس المخلوقات يمكن ترويضها بقليل من الصبر والحيلة حتى لو كانت في خطورة جو، وأن الحواجز الوهمية التي علمتها عمتها أن تتحصن بها ضد الآخرين معرضة للانهيار في أي وقت، وأنها ــ دون مراوغات أخرى ــ تفكر في خوض التجربة رغم كل شيء.

لن يغير شيئا..

إثبات أن الحياة التي نعيشها هي حلم آخر

عزيزي أرمسترونج ..

أشياء كثيرة تغيرت منذ أن رحلت، بالإضافة لكتابة الرسائل السرية اكتسبت عادات أخرى مثل قراءة الفنجان والروايات البوليسية ومتابعة أخبار الحوادث وزيارة السينما بانتظام نزولا على رغبة علي، كما تلقيت دروسا مدهشة في الثرثرة والكذب والرقص الشرقي وإلقاء النكات الجنسية وخطوط الموضة والخيانة والحب على أيدي بنات المدرسة، تعددت علاقاتي بشكل لم أكن أتخيله، وتدريجيا نمت مشاعر حقيقية بيني وبين البنات، «نوران» علمتني وصفتها الخاصة لإنقاص الوزن، و«داليا» أنشأت لي موقعا إلكترونيا فشلت في التعامل معه، و«شيري» علمتني جدل السعف، وطريقة عمل «الكاني لوني» واحتساء الأباركا في الأمسيات العائلية، و«وئام» جرأتني على قيادة السيارة المركونة منذ سقوط سامح، «سلوى» درّبتني بصبر شديد على رقصة الفلامنكو كما كانت تؤديها «لأورا ديل سول» بطلة فيلم كارمن قبل أن يطعنها «أنتونيو جادس»، و«رباب» ألهمتني قصص حب تعسة من وحي أسرار العاشقات في المدرسة التي تفشيها مجانا ولأي عابر سبيل حبا خالصا للنميمة، والتي سأرويها لسامح ذات يوم ليكتب عنها، والزهور التي ترعاها أميمة تكاثرت حتى فاض المنزل بالأصص الفخارية على حواف النوافذ وسلالم العمارة، صارت تخلط بين أسمائها ومواعيد

الري والطقوس الخاصة بكل نوع منها، فآلت للذبول دون افتراءات أخرى على الموسيقى الحديثة، وماجدة لم تعد وحيدة كما تركتها منذ شهور، في نزوة أخيرة قررت أن تتبنى طفلة لا أعلم من أين جاءت بها وأطلقت عليها «بيرنا»، تذهب بيرنا مع علي إلى دروس الرسم التي أحرص على متابعتها أسبوعيا لتنمية قدرات علي الفنية وحماية جدران المنزل من شر إبداعاته .

هذا عن حالي، أما عن حال بعض الأصدقاء المشتركين بيننا فقد رحل أحمد زكي هذا العام متأثرا بسرطان الرئة، وانتحر أمير بلزان قبلها بأيام، وأقام فريق ارتجالات حرة حفلا موسيقيا على مسرح روابط تمنيت أن تشاركني إياه، وأصدرت سعاد ماسي ألبومها الجديد «مسك الليل»، لا أعرف لماذا شعرت أنها تغنيني أنا بالذات خاصة في أغنية «هجدا ولا أكثر»، صحيح أني لم أفهم بعض كلماتها لكني طالما فكرت في « الطير الـــ عُمْرُه ما طار»، كما حضر باولو كويلهو إلى القاهرة في زيارة استمرت لخمس أيام و ـــ تخيل ـــ لم أستطع مقابلته، وانتهى العام بوقوع مذبحة في بلدتي الصغيرة، وتحديدا بمدينة بني مزار حيث قُتل ثلاث عائلات في منازلهم قبيل الفجر، كتبت الصحف «كسور في رؤوس الضحايا، بتر وتشويه أعضاءهم الجنسية، بقر بطونهم بما فيهم طفل عمره ثلاثة شهور، قبل اختفاء الجناة تركوا في أحد المنازل الثلاثة عضوا ذكريا معلقا على جدار، وحمائم مبتورة الرؤوس في كل مكان، ويبدو أن المقصود من هذه السينوغرافيا المفزعة مجرد التضليل، أتخيل عشر جثث ممددة فى فُرُشها الدافئة دون حراك، يجعلني ذلك أجد صعوبة في النوم أكثر من أيامي الأولى في القاهرة، وأفكر كيف كانت

موسيقاك أرحم من موسيقاهم!

أعترف الآن أن كتابة الرسائل تحولت إلى هواية لعينة لن أتخلص منها بسهولة، محاولة للتواصل مع آخر ترغب في أن يشاركك التفاصيل الصغيرة والتافهة التي تمر بحياتك — وبالمناسبة فقد انزلقت قدمي منذ يومين في البانيو وأصبت بتمزق في الأربطة — أو بالأحرى محاولة للتعري على طريقة «آنا» بطلة الفيلم الفرنسي — لا اتذكر اسمه — الذي شاهدناه معا، أخطأت «آنا» بسبب التشوش بين عيادة الطبيب النفسي ومكتب جاره خبير الضرائب «فابير»، بعد أيام أدركت الخطأ لكنها وجدت سعادتها في البوح بأسرارها إلى «فابير» الطبيب المزيف لمجرد أنه غريب عنها ولديه آذان صاغية، كما أجد الآن سعادتي في كتابة الرسائل التي أصبحت تشغل مسودات عديدة على ظهر صفحات ملازم التاريخ أجاهد في إخفائها تحت المراتب، وفي صندوق الملابس الشتوية، ووسط دفاتر التحضير، أصبحت الرسائل ملحة، وغير محددة، وأحيانا — كما ترى — مطولة أكثر من اللازم.

فيرونيكا

ـ ١ ـ

يتوقف صوت «بيورك» وتنسحب الموسيقى القادمة من الحجرة، لحظات ويفتح الباب بهدوء ليكشف عن نصف وجه خجول لبنت في العشرين، ترتدي قميصا برتقاليا وبنطلون جينز، شعرها ينسدل على كتفيها مثل ستار مجعد يحجب النصف الآخر من الوجه، ويفوح منها عطر جذاب، تنتبه صفاء للشبه الواضح بين الفتاة وبين أميمة، خاصة عندما تحيط الأخيرة بذراعها كتف الفتاة كأنها تستعد لالتقاط صورة عائلية، ثم تشير إلى صفاء

ـ ميس صفاء .. جارتنا في السادس

ـ اتفضلي ..

تهمس الفتاة بحس رقيق يكاد يكون مسموعا، وتدفع الباب لآخره كدعوة للدخول. الحجرة يخيم عليها ضوء الألترا الخافت. تشير أميمة للفتاة وتتنهد بعمق ..

ـ جو ... ابني !

في لحظة ترتفع درجة حرارتها إلى ٤٠°، تتوتر نبضات القلب وأميمة تقودها إلى الداخل ثم تتركها مع هذا الكائن المريب في حجرة واحدة وتنصرف، الضوء الخامل يسمح بالكاد برؤية بعض الكتل السوداء

التي تمثل مكتب صغير ومقعدين وأربعة أعمدة موزعة في الأركان، مجرد ظلال لمجسمات مبهمة تشعرها بالرهبة ووسط الظلام لا تظهر إلا الحبال البيضاء المتشابكة لأرجوحة النوم العجيبة المنصوبة في عمق الحجرة يتمدد عليها مجسم أسود لآلة جيتار، وصفحات بيضاء من كتاب مفتوح على المكتب، وجمجمة بيضاء من العاج معلقة في الفراغ المظلم. الشاب يلم شعره برباط حريري ويبدو أنه لاحظ ارتباكها بطريقة ما، يبدل ضوء الألترا بضوء أبيض قوي، فيثب قلبها من صدرها بطريقة كارتونية، يتقافز على الأرض بمجرد أن يكشف الضوء عن كولاج لبوسترات فرق الروك والجاز والبوب والراي تتداخل مع تصاوير عجيبة ومزعجة مقصوصة من صحف ومجلات ومصادر مختلفة، لوحات لآلهة العصور الغابرة، ولقطات لمشوهي الحرب ولنجمات السينما وبنات الرصيف ومجرمي التاريخ وجموعات المتظاهرين وملائكة وقتلة وصلبان، لتغطي كل شبر في الحوائط والسقف الذي يحدّه من الجهات الأربع إطار بارز يبدو أنه مصدر الأضواء الموزعة في الحجرة، أما الأعمدة فيتضح أنها مشيدة من صفوف الكتب والمجلات المتراكمة فوق بعضها بإحكام، وبمجرد أن يصطدم قلبها في إحدى قفزاته بأول صف من الكتب يتهاوى على الأرض، وتدريجيا تلحق به الصفوف الأخرى فلا يجد القلب المذعور فرصة للاختباء تحت قطعة أثاث أو لصق الحائط من انهيار الكتب المدوي، ولا للعودة إلى موطنه الأصلي حيث خلف جرحا غائرا في صدرها. يتقدم الشاب بصعوبة بين أكوام الكتب، ينبش بينها حتى يعثر على القلب الذي يرتعد في يديه ويسعل ببراءة فتتناثر حوله ذرات غبار. يعيد القلب إليها بابتسامة غامضة.

ترمش عيناها مرتين. تنتبه لأن الشاب يتحدث إليها منذ مدة، قلبها لازال في مكانه، وصفوف الكتب على حالها، تحاول استيعاب الأمر. لم تكن صدمتها في مظهره الأنثوي فحسب، بل في تداعي الصورة التي رسمتها في خيالها للوحش المطلوب ترويضه، يبدو رقيقا وناعما إلى درجة تبعث على الغيظ، لم تتخيل أن يكون هذا المخلوق الهش، هذا المزيج الغامض، هذا الـــ...«استغفر الله العظيم!» هو الذي سبب لها الرعب أعواما طويلة. وجه ملائكي بعيون خضر وبشرة سمراء كما لقط سيامي مدلل، وابتسامة لا تخلو من تهكم، وجه كوجوه الأطفال المنتقاة بعناية في الاحتفالات الملكية للطواف بباقات الزهر في فساتين بيضاء.

يأخذها في جولة للتعرف على أصدقائه المعلقين على الحوائط حيث لا فرق بين «المسيح» أو «راي تشارلز» وحيث تتداخل مستنسخات أعمال «ماجريت» مع إعلانات الوجبات السريعة، وتمتد حقول «فان جوخ» حتى عشوائيات القاهرة، وحيث يميل «لويس أرمسترونج» بآلة الكارنيت قليلا ناحية إمرأة فرعونية تعزف الهارب في صورة مجاورة، وتضيء حلمات «مونيكا بيلوتشي» كوجوه القديسين في الأيقونات، وكواكب ملونة تطفو على عيني «آرثور رامبو» الشاخصة صوب نقطة بعيدة ومجهولة من الجدار المقابل إذا ما تتبعتها تقع عيناك على الالتحام الأبدي بين «مارلون براندو» و«ماري شنايدر» في اللقطة الشهيرة من فيلم.«التانجو الأخير في باريس» لبرتولوتشي ــ بروفيل لجسدين عاريين متشابكين، ومتقابلين، أربعة سيقان تعانق بعضها، الرأسان ساقطان للوراء في نشوة، والعيون نصف مفتوحة لأعلى، والأيدي تستند إلى الأرض عوضا عن الوسائد، المسافة الواضحة بين الوجهين تترك بعدا

مناسبا لكل منهما للتطلع إلى الآخر، وتفسر طبيعة العلاقة الناشئة لتوها بين غريبين، لكن الذوبان النهائي عند ملتقى الفخذين يصبغ المشهد بطابع إيروسي ـــ وأمام هذه اللقطة تحديدا التي تسببت في قطيعة بين أميمة وابنها دامت لشهرين وانتهت إلى قرارها بعدم دخول الحجرة لأي سبب، تتوقف صفاء مرتبكة وتدير بصرها بعيدا فيقع ـــ لحظها ـــ على وجه عراقي لشاب يفتح فمه باتساع عن نصف لسان مقطوع كتذكار من الرئيس الراحل صدام حسين المكبل في صورة أخرى على نفس الجدار بلحية مهووشة، يعلوها ملصق إعلان ماكينة لإزالة الشعر، صورة الموديل وهي تمرر الماكينة على ساقها الناصعة تدفعها للهرب مرة أخرى..

ـــ متهيء لي نبدأ الدرس ..

ـــ لازم ؟..

بداية يعتذر لأنه لم يقابلها في ظروف أفضل، ينصحها بالانصراف بعد احتساء العصير الذي ستحضره لها أميمة خلال دقائق، وأن تتجاهل الأمر برمته، وسيتولى هو مهمة تفسير انسحابها لأمه، يخبرها أن إصراره على الرسوب أكثر صلابة من رغبتها في مساعدته. سيرسب، حتى لو حصل على مساعدة «عبد الرحمن الرافعي» شخصيا، ولن تفوز في أحسن حال إلا ببقعة سوداء في سجل عملها تماما كالمدرسين السابقين.

ـــ متهيء لي نبدأ الدرس ..

لا يجد أمام إصرارها بدا من عرض تقرير مختصر عما آل إليه حال أسلافها، آخر الضحايا مدرسة أربعينية انقطعت عن الدرس منذ عرض عليها اقتراحا بالزواج العرفي، قبلها بشهور خرجت مدرسة أخرى

على مشارف الثلاثين مطرودة من حجرته وقد ضبطتها أمه نائمة معه في الأرجوحة المتمايلة على أنغام «بوب دايلن»، بالإضافة لمدرسات أخريات انتهى الحال بهن لممارسة أعمال التطريز والدلالة وتجارة الملابس المهربة من بورسعيد بالتقسيط وخلافه، وربما نجحت تلك الأساطير في إثارة خوفها فعلا، لكن لم تنجح في إقناعها بالانسحاب. بدا الشاب مثيرا أكثر من توقعاتها، لذا ستبدأ الدرس فورا وتتجاهل تحذيراته وأنفها الآخذ في الاحمرار كمؤشر للخطر. تسارع بتقديم نبذة عن مادة التاريخ لا تعرف أنها ستقودها إلى جدل لا نهائي معه حول ماهية التعليم، عامة هو يكره المدرسين كما يكره الموت، ويحتقر الاثنين كذلك، لكن إذا اقتضى الحال أن يصبح مدرسا ذات يوم فإنه لن يكون ـــ أبدا ـــ مدرس تاريخ، الأحرى به في تلك الحالة أن يكون مدرس موسيقى، ونظرا لعدم اهتمام الموسسة التعليمية بالموسيقى، فقد يكون مدرس فلسفة ليعلم الأولاد ضرورة الشك في التاريخ والحب والعدالة عملا بوصية بروتاجوراس، ويعلم البنات أن القياس المنطقي الخاطيء هو «كل العذراوات جميلات!» وأن عصافير أفلاطون لم تعد تحط على نوافذ الصغار في الصباحات الربيعية، غير أن ذلك لن يعفيه من تقمص سلطة المدرس بداية من ازدرائه لتلاميذه بنظرة العارف بعد أن صيرهم عبيده، وصولا لفقأ عيونهم بطريق الخطأ أحيانا، لا يكلفه الأمر سوى إيقاف مؤقت عن «الفقأ / العمل» ويكون العمى في الحالتين هو الهدف سواء بضربة طائشة من عصا، أو بفرض مقررات ومناهج ضبابية وضعت من قبل بعض الموتى هم خليط من تجار الكلام ودعاة الأخلاق والملتصقين بمقاعدهم المذهبة حتى آخر علاوة وحماة «بلاده بلاده .. لكي حبه

وفؤاده!» كي يتبارى التلاميذ في تحقيق درجات متفاوتة من العمى، وفي أحسن الأحوال سيتعلم التلاميذ من مدرسيهم دروسا إنسانية من العيار الثقيل لا تتعلق بمناهج التعليم، بل بمعاناة المدرس كأي فرد في المجتمع من الغلاء وصعوبات العيش، ومشاكله الزوجية، وسلوك أبنائه، وربما آلام البواسير إلى آخر الأشياء التي يشكو منها أحيانا خارج سياق الدرس، والتي تهبط به لمستوى الواقع المعاش فيكفّ عن كونه مثلا أعلى كما كتب «بريشت» في كتابه «حوارات المنفيين».

مرة أخرى تحاول الحفاظ على هدوءها وتجيب على هجومه الشرس بابتسامة باردة، تدير دفة الكلام إلى موضوع الحياة في مصر القديمة فينتهز جو الفرصة لاستعراض مقاطع من شكاوي الفلاح الفصيح يحفظها عن ظهر قلب، «فأنت أب للبائس، وزوج للأرملة، وشقيق المرأة الشابة، ورداء المفتقد للأم، فلتعمل على أن أعلن وأنادي باسمك، باعتباره قانونا بالبلد، فلتتقبل كلمات فمي، فلتستمع، ولترسِ العدالة» يتساءل ماذا لو كان الفرعون هو الذي كتب الشكوى بعد أنَ أمر بقتل الفلاح وبنحت التاريخ الذي يريد على الجدار والذاكرة ــ وبعد آلاف السنين ــ في كتاب الوزارة، فالمنتصرِ وحده قادر على كتابة التاريخ غالبا، وبالتالي قادر على صناعته وإن كَرِهَ الفلاحون، وإلى اليوم لم تقدم كتب التاريخ دليلا قاطعا على كذب الفرعون، ولا على صدق دعواه، لذا سيعفيها من إجابة هذا السؤال ولن يخبر أمه كذلك أنها لا تعرف اسم الفرعون «نب كاورع» ملك مصر العليا والسفلى، على أن تعده بألا تعود للحديث معه عن التاريخ مرة أخرى، أما مجلدات التاريخ التي تساهم بقدر ما في تكوين الأعمدة المقامة في زوايا حجرته، فإنها تحت

أمرها في أي وقت تشاء بشرط ألا تعيدها، هذه المرة تجمع صفاء أوراقها دون أن تنبس بحرف وتنصرف في حين تلاحقها أميمة بكوب العصير دون جدوى، لحظات ويغلق باب الحجرة، ويعاود صوت «بيورك» التحليق.

- ٢ -

لا تعرف لماذا استسلمت للبكاء، مجرد شعور بالغيظ من كلام جو، أم سحابة حزن لا إرادية تصيبها عند نوبات الفشل، أم لأنها أول ليلة كريسماس تقضيها في غياب سامح، أم ندما على تورطها مع أميمة من الأصل ومخالفة وصايا عمتها، ربما لأسباب كثيرة متراكمة، حتى أنها لم تع لماذا انفجرت في البكاء فجأة حين تطلعت لأوراقها ودفاترها وأدوات التجميل التي بعثرها علي في أرجاء المنزل أثناء غيابها، خاصة وأنه يفعل ذلك تقريبا بمعدل من ثلاث إلى خمس مرات في الشهر. هو أيضا لم يفهم سر البكاء المفاجيء، لم يحاول الاختباء كما يفعل كل مرة يرتكب فيها جرما صغيرا، اقترب منها وربت على يدها برفق أكثر من مرة، ثم قبلها، لكنها آوت للفراش متعبة.

ما تبقى في ذهنها من زيارة أميمة الأجواء المسرحية بحجرة جو التي توحي بها الصور واللوحات وضوء الألترا المخيف، وملامح جو الأنثوية التي تخفي وراءها شراسة نمر، وابتسامة سخرية مرسومة على شفتيه طوال الوقت، والأهم من ذلك الجو العام للمنزل الغارق في الصمت، صمت عميق وممتد، أثار لديها إحساسا كئيبا كان يراودها من قبل

في أروقة المستشفيات وصالات المكتبات العامة التي ترددت عليها، والبيوت المهجورة التي كان أطفال القرية يتخذونها أوكارا للعب، أو في قاعة درس خالية من التلميذات حيث تنفرد بنفسها أحيانا مستغلة الشغاهن في فترات الراحة وحصص الألعاب التي تقام في حوش المدرسة المعروف بين البنات بـــ «حوش القرافة!» ـــ فاتني أن مدرسة الزهراء الثانوية للبنات تطل على المقابر، لا يفصلهما سوى السور الحجري المزود بسياج حديدي لا يحجب الشواهد المتجاورة عن الرؤية. ربما في ذلك الصمت المقيم نمت الرغبة بداخل طفل يعشق الموسيقى بقدر ما يكره الموت، وفيه أيضا أمضت أميمة شبابها تتهامس مع الزهور.

دقائق ويرحل ديسمبر مخلفا في الجو برودة لذيذة وتاركا بين يديها صندوقا عامرا بالمفاجآت غير السارة تبدأ بسقوط زوجها المفاجيء وتنتهي على بعد صفحتين بكارثة أخرى. الشوارع مغسولة بالمطر لكنها لا تفكر في الخروج، ربما لأن شوارع عين شمس ـــ على خلاف شوارع العالم ـــ تكون مغسولة بالطين في ذلك الوقت، لا تفكر حتى في الجلوس بالشرفة، ولا تريد الخوض مع أميمة في أحاديث من أي نوع. ترى كيف يشعر سامح الآن ؟ كيف يحلم ؟ هل يستغرق في تخيلات سريالية خلال نومته الطويلة، هل هي لحظة الترك التي انتظرها طوال عمره، هل تراوده الآن حيوانات خرافية وحوريات بحر وشموس زرقاء وفراشات عملاقة، أم يرقد في فراغ مظلم منذ أن استسلم للفراش. هل يتحرك الآن بخفة بين زملاء دراسته وركاب القطارات التي استقلها طوال حياته، والحدائق التي مر عليها ولم يدخلها، ومغامرات التقاط المحار وصيد قناديل البحر في صيف طفولته، وتصفيتها من عصارتها الكاوية.

على مقاعد المصطافين كمحاولة لحرق مؤخراتهم، والهروب المبكر من المدرسة، ربما ينتبه هذه المرة وهو يتسلق السور حتى لا تنكسر ساقه مرة أخرى، ربما يحسم أمره بتمزيق كتب المدرسة ويصرخ في وجوه الجميع «سأكون الكاتب الذي أريد» ربما هذه المرة يدون رغباته في دفتر التنسيق بدلا من رغبات أبيه، ربما حتى لا يلتقي بصفاء أو يتزوجها، هكذا سيشرع في معالجة ذكرياته شأن معظم الكتاب المتورطين في النوستالجيا، يدفعها غيابه إلى الإحساس بالضعف والوحدة، وإلى إعادة ترتيب أغراضه وأوراقه وملابسه، هكذا تضبط نفسها متلبسة بالحنين عندما تفتش عن رائحته في صفحات كتاب أو قطعة ثياب أوعندما تكتشف أنها أعدت الغداء لثلاثة أفراد بدلا من اثنين. دقائق ويبدأ العام الجديد، وعليها أن تستعيد سامح الليلة ولو في الخيال، تؤمن بالحب أكثر من أي وقت مضى، أو هي حلاوة الروح، آخر سبيل للمقاومة قبل الاستسلام التام، تؤمن في وجود طاقة روحية تربطها بسامح تستطيع من خلالها أن تبث فيه الروح، إيزيس فعلت الشيء نفسه مع زوجها وشقيقها وحبيبها الوحيد أوزير. من أين تبدأ الأسطورة وينتهي التاريخ؟!..

أخرجت التصاوير، القمصان، الدفاتر، صناديق الذكريات، ساعة يده، الخواتم، دبلة العرس، المنافض بما تبقى فيها من رماد، زجاجات عطر، بينما يلهو علي بين ألعابه. وعوالم والت ديزني أعدت كل شيء للذكرى، وجلست تتصفح أجندة قديمة عمرها يتجاوز إحدى عشر عاما بعد دقائق معدودة، خواطر، وأبيات قصيرة بخط سامح، تواريخ ويوميات، وأحيانا زهور جافة وتذاكر عديدة ترقد بين الصفحات،

وأفكار مقتضبة خاصة بمشاريع أدبية كان يؤجلها كالعادة، تذاكر سينما ومترو وقطارات، تذاكر للمتحف المصري، وصالون الشباب، ومتحف العلمين لضحايا الحرب العالمية الثانية، والمسرح الكبير بدار الأوبرا، تذاكر أوتوبيس وحفلات ـــ تبدو هواية عجيبة احتاج سامح إلى سنوات للإقلاع عنها ـــ تذاكر لمكتبة الإسكندرية، وقلعة قايتباي، تذاكر لمتحف الشمع، تذاكر زيارة مصحة نفسية، تذاكر، تذاكر، وفي إحدى الصفحات صورة فوتوغرافية قديمة، ولكن ما هذا ؟..

الثلاثاء ١ / ١٢/ ١٩٩٤

«السماء تمطر بوداعة، مطرا خفيفا مصحوبا بوعود بيضاء وأنغام خفية، قالت أن اسمها صفاء، وجهها خلاسي، عيناها لا تستقران بين لحظة وأخرى، تتطلع لالتقاط وجه عابر، أو حركة طير أليف يحط على رأس أحد الأسود الرابضة على كوبري قصر النيل، أو شرفة بعيدة تظهر فيها عجوز أجنبية تداعب قطتها، أو مرسيدس تفرمل فجأة أمام طفلة تبيع المناديل، أو مجذوب ستيني يركض على أربع وينبح خلف العابرين على الكوبري. قالت أن التصوير الفوتوغرافي هواية موروثة عن أبيها، وقد علمها قبل أن يرحل أن اللقطة الفوتوغرافية وسيلة لتسجيل الزمن، وأحيانا تكون العزاء الوحيد على الذكريات المفقودة، لذا فهي تعتمد على اللحظة، الومضة، انظر صورة لأحد المتسابقين في رياضة الجمباز لحظة يدور جسده في الهواء بمرونة فاردا ذراعيه على امتداد الساقين، ستجد أنها لحظة تعكس مجهود شهور وربما سنوات من التدريب الشاق، وأحيانا تعثر في إحدى المجلات الفنية على صورة من

حفل ختام مهرجان سينمائي، وبالمصادفة يظهر في ركن ما من الصورة ممثل يتجاوز الستين وعيناه تترقرقان بالدمع على جائزة لم يحصل عليها، لحظة استثنائية تجسد سقوطه وانتصار الزمن في آن وإن جاءت بمحض الصدفة، أو صورة عسكري أمن مركزي يرفع هراوته متحفزا لضرب أحد المتظاهرين أمام بوابة الجامعة، لحظة توحي بذروة الصراع المحتدم بينهما وتحيلك للتفكير في صراعات طويلة وممتدة بعمق التاريخ بغض النظر عن تغير أشكالها، ولكن ماذا لو لم تنجح في التقاطها، ماذا لو تأخرت لحظة، سيكون المتسابق قد هبط إلى الأرض بسلام، ويكون الممثل العجوز قد غادر القاعة حتى يجفف دموعه بعيدا عن الأنظار، وقد ينتبه العسكري أيضا للكاميرا التي تحملها فيغير اتجاه الهراوة نحو رأسك. لم تتوقف عن الكلام لحظة ولا عن التقاط الصور طول الطريق، مشينا قليلا على كورنيش النيل، ورافقتها إلى مطعم صغير في وسط البلد ولحسن حظي قبلت الدعوة، لا أعرف لماذا اتجهت نحوي دونا عن كل التعساء والمتنطعين المنتشرين على الكوبري، وطلبت مني سيجارة، شعرت أنها مجرد حيلة للتعرف بي، عامة لم أهتم، لقد وقعت على جذور رقبتي من أول لحظة، لحظة للأسف لم تسجلها الكاميرا، انتابني الشك في أنني أحلم، وأن تلك الفتاة الخلاسية صنيعة خيالي، لكن عندما دعوتها إلى السينما ورحبت بالدعوة تأكدت أنني أحلم لا محالة، حتى يسرا التي لم أحب يوما أداءها الفاتر بدت رقيقة ومتوهجة وهي تبيع للعشاق الورد على كوبري قصر النيل، وجهها يشتعل حمرة كحبات الفراولة، ربما لإحساسي بأنها فقط جاءت تبارك لقاءنا بهذي الورود دونا عن باقي رواد السينما، وربما لأنها كانت حامل في خمس شهور أثناء تصوير

الفيلم كما قرأت بعد ذلك في الصحف، وربما هي عين خيري بشارة دون غيره. رغم ذلك وبفضول كاتب عنيد سألتها «لماذا أنا بالذات؟» وأجابت بتلقائية «لا أعرف، ربما لأننا لن نلتقي مرة أخرى» ثم سألتها لماذا تقبل دعوتي مرتين، ضحكت وأجابت دون تفكير «لأني مفلسة» ، بعد انتهاء الفيلم كان علينا العودة سيرا على الأقدام عندما اكتشفت خواء جيبي، ويبدو أنني كنت أسير حالة عشق لم أنتبه خلالها كيف أنفقت آخر قرش معي، رافقتها حتى بداية شارع الهرم دون أن نشعر بالتعب، ولا بالمطر الذي عاد يذكرني بوعوده، قالت أن صديقة لها تنتظرها في مكان ما، قبلتني وانصرفت، وقد وافقت على أن تترك لي صورة للذكرى، اختفت تماما وتركتني كالمسحور أتساءل عما قادني إلى تلك الشوارع والمطر، أعتقد انني سأجدها مرة أخرى تفتش في الطرق العامة، والبيوت المهدمة، والمقاهي المتهالكة، والوجوه العامرة بالندوب والحكايات عن لحظة تستحق التصوير، غير هذا لم أعرف عنها أي شيء. قالت أن اسمها صفاء، وأننا لن نلتقي مجددا»

شعرت صفاء بدوار، تطلعت إلى صورة الفتاة التي جاءت مواصفاتها في المذكرات، وجه خلاسي مدور ذو ملامح حادة وعلى وجنتيها نمش طفيف لم يذكره سامح، أخذت تقلب صفحات الأجندة بانفعال متزايد، عبارات مستعارة من شعراء وكتاب آخرين، رسوم مجردة لحلقات دائرية مغلقة، تذاكر طيران، ومعارض، ووجبات، وتذاكر لحديقة الحيوان، وحديقة الأسماك، والمسرح القومي.

السبت ١ / ٦ /١٩٩٥

«الآن أدركت معنى الزمن، وضرورة أن تخونه في كل لحظة، صارت جولاتي على كوبري قصر النيل هواية بليدة ومحاولة فاشلة لاسترجاعك، أحيانا أعود خالي الوفاض، وأحيانا أخرى تصادفني امرأة عابرة، نزهة هادئة على الكورنيش، وزيارة موسمية لنفس المطعم، ونفس السينما، حتى قاعة العرض ذاتها بغض النظر عن الفيلم المعروض فيها، ثم وداع سريع، وفي بعض الحالات ــ إحقاقا للحق ــ لم ينته الأمر بوداع سريع، بعضهن مهووسات بالعشق ندمت كثيرا على اصطحابهن لمنزلي، وبذلت مجهودات خرافية للتهرب من ملاحقاتهن، والبعض محترفات ندمن على تضييع الوقت مع شخص مفلس وأخرق مثلي، حتى الفتاة التي سرقت جرامافون قديم اشتراه أبي من صديق أرمني لجدي، لم تدفعني للإقلاع عن هواية الصيد، إلى جانب أني كنت أكره الجرامافون كما أكره كل الآثار المتحفية المتعلقة بأبي، مثل جرامافون لا يسمعه، أو علبة سيجار لا يدخنه، أو مكتبة إسلامية في استقبال المنزل لم يقرأ منها حرفا، مع ذلك كنت أشعر بعد كل علاقة عابرة بتشوهات نفسية جديدة تؤكد غيابك، ربما كنت أهجر روحي بهذا التنقل بين العابرات، كنت أحاول التخلص منها دون أن أدري، عبثا أن تهمل حياتك ومظهرك كالمجاذيب، تحاول الانفلات من الزمن مثل متصوف، وتتفرغ لاستعادة لحظة.»

تذاكر بواخر سياحية، وحمام عمومي ــ هواية سخيفة ــ ونادي ومزارات سياحية، وخبر مقصوص من صحيفة قومية يشير إلى انقراض حيوان الباندا، خواطر مبهمة، وكلمات عن حالة الطقس، عملة ورقية قديمة من فئة الخمسة قروش»

الأحد ١/ ١٢/ ١٩٩٦

«أعتقد انني قد شفيت منك، لكني من حين لآخر أحن لنفس الأماكن فقط لأضحك من أيامي الماضية، وأعود لمنزلي وحيدا، دون التورط في علاقات أخرى.»

باقي صفحات الأجندة بيضاء، بعد أن أعادت قراءة مذكرات سامح حرفا حرفا حوالي سبع مرات، انتبهت لأن علي ينام جالسا أمام التليفزيون ويده تقبض على مسدس بلاستيك، وأن صباحا جديدا قد طلع على الشوارع والبيوت التي بدأت تدب فيها الحياة، وأنها تأخرت عن المدرسة بما يكفي، ارتدت ثيابها على عجل دون أن تفكر فيما تفعله، كانت تتحرك كالمنومة، متوترة إلى درجة تجعلها عاجزة عن الرؤية، اكتشفت في الطريق إلى المدرسة أنها نست دفتر التحضير في المنزل، لم تهتم، واصلت السير في شوارع لا تعرفها وبخوف فطري لم تحاول أن تبتعد كي لا تتوه لذا كانت تسير في دوائر وحلقات مفرغة تشبه رسوم سامح، شعرت بالتعب والهزيمة أمام الدروب المتقاطعة وقلة النوم وتذكرت أنها لم تأكل شيئا منذ أمس، استقلت سيارة أجرة وأخذت تتابع الطريق بعينين دامعتين وتستعيد ذكرياتها الجميلة مع سامح، هذه المرة تتخيل صورة الفتاة المذكورة في مذكراته تحل محلها، تتخيل الملابس والحلي التي اشتراها لها على جسم الفتاة الخلاسية، ولسبب غامض تشعر أنها تبدو أزهى، تتخيلها تتخذ مكانها على مائدة الطعام، تريح صدرها على كتف سامح في السينما، تتركه يحملها على ذراعيه في طريق العودة، إنها أضعف من احتمال هذا العذاب، لم تفق من شرودها حتى توقفت السيارة في شارع خلوصي واستدار لها السائق

بنفاد صبر.

ــ فين في شبرا يا مدام ؟.. شبرا واسعة !..

ــ ٣ ــ

هي لا تذكر عنوان العيادة، تستطيع الوصول إليها بالنظر فحسب. سنون مرت على زيارتها الأخيرة لماجدة، لذا لم تنجح البيوت أو الوجوه في إثارة أي حنين لديها، تعرفت بالكاد على شجرة هزيلة مسورة بسياج خشبي وطابور من القلل يفوح منها الماورد أمام عتبة بيت قديم من طابقين، بدا قزما بين العمارات الجديدة التي تكاثرت من حوله بارتفاعات شاهقة، الشجرة علامة على أنها في الطريق الصحيح، وأن العيادة على بعد أمتار، اختفت اللافتة الخشبية التي تحمل اسم ماجدة، بدلا منها تظهر لافتة ضخمة ومضيئة تمتد بعرض الطابق الثالث من العمارة «عيادة د. ماجدة حليم، نساء وتوليد.. (و) ..أتيليه جنة لفساتين الزفاف والسواريه» لافتة مشتركة، بارزة بشكل يجذب العين، لكن استخدام نفس الخامات والخطوط والألوان والخلفية في الإعلانين يوحي بوجود رابط خفي بين العيادة والأتيليه، ويحيل إلى مفارقة أخرى.

توقعت ماجدة أن تعود صديقتها بعد هذا الغياب لتقدم بيبليوجرافيا عن حياتها الزوجية السعيدة، كانت تتشوق لسماع المزيد عن تجربة الزواج التي تجاوزت الثلاثين ولم تعشها، وإذا بصفاء تنفجر في البكاء

على صدرها، وتمهم بكلمات تفهم منها أن ما فات كان وهما.. كابوسا.. كذبة كبيرة، وتشبيهات من هذا القبيل رجحت ماجدة أنها تأثيرات إحسان عبد القدوس التي لم تبرأ منها بعد. قررت أن تتوقف عن العمل مع انصراف آخر مريضة حتى تتفرغ لصديقتها، أغلقت باب العيادة، أعدت القهوة على عجل، اقترحت صفاء أن تواصل الحديث معها في الخارج، تكره هذا المكان، فهو يذكرها بسنوات الجدب التي عاشتها قبل ولادة علي، أما ماجدة فكانت تتحين أي فرصة للخروج من محبسها، أجرت اتصالا سريعا بصديقة لها أوما شابه، لحظات ودخلت من باب العيادة فتاة لا تتجاوز العشرين، رغم ذلك فهي متفجرة الأنوثة بشكل يوحي بمستقبل فاحش، ترتدي حجابا معقودا على الطريقة الإسبانية، لها وجه خمري وابتسامة طفولية عذبة، قدمتها ماجدة إلى صفاء بصفتها صديقتها ودعتها «جي جي»، ويبدو أن «جي جي» كانت تعرف بعض الأشياء عن صفاء من حكايات ماجدة، فقد قبلتها بمودة أكثر من اللازم، وسألت عن حال «علي»، ثم دست في يد ماجدة شيئا ما قبل أن تنصرف مخلفة وراءها ضحكة رنانة تشبه صيحة كروان، لكن ألم تغلق ماجدة الباب بنفسها منذ لحظات؟!

قضمت ماجدة قطعة من هدية «جي جي» وشرعت في إعداد سيجارة حشيش متجاهلة التساؤلات الكثيرة التي تتقافز من عيني صفاء، قالت أن «جي جي» جارتها منذ سنين، بنت صاحبة محل الفساتين، وتدير المحل منذ كانت طفلة، تدرس تصميم الأزياء، وتتلقى كورسات في الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، وتقيم حفلات رقص، وتنظم رحلات سفاري، وتخطط للزواج من «جوني ديب»، وتروج المخدرات بصنوفها

بين أصدقائها المقربين وهم كثر، لجأت إليها ذات يوم لتتخلص من حمل سفاح و قد نشأت بينهما صداقة.

اكتفت صفاء بنفسين من الحشيش تحت إلحاح ماجدة، وانسحبت بعدها إلى عالم سحري، كانت قد نست الشكوى التي جاءت تحملها، نست ما أتى بها إلى هذا المكان أصلا، وكيف، ولماذا الآن بالتحديد، للحظات حاولت أن تتعرف على ماجدة من جديد ولاحظت أن ذاكرتها تعمل بايقاع بطيء، لم تشعر بشيء وهي تغادر العيادة وتستقل سيارة ماجدة، الحياة لم تعد كما كانت منذ لحظات، سحابة شجن تغلف الوجوه والشوارع والأضواء التي تمر أمامها بطريقة سينمائية مع اندفاع السيارة، هدوء يجعلها تقف على بعد مناسب من نفسها كمن يتطلع في مرآة، لتبدأ في رصد البثور والهزائم والبقع والجروح، تستسلم للدوار، تلمح من نافذة السيارة وجها عابرا بين المارة يشبه وجه الفتاة النائمة في أجندة سامح منذ سنين، قلبها يخفق لكن لا تستطيع التأكد من ملامح الوجه الذي يذوب في الزحام، صوت فيروز الخارج من كاسيت السيارة كأنما يأتيها من خلف الذكريات

تعا .. ولا تيجي

واكذب عليّ ..

الكذب مش خطيّة ..

اوعدني إنه راح تيجي

وتعاااا ...

ولا تيجي

في إشارة المرور تنتبه إلى نفس الوجه المميز بنمش الذي يطل هذه

المرة من نافذة سيارة مجاورة، نفس الفتاة تبتسم لها كأنها خرجت فجأة من المذكرات، تشعر بالقباض وتلتفت على صوت ماجدة «سآخذك في رحلة» لكنها لم تكن ماجدة، هي نفس الفتاة دون شك التي حلت بطريقة ما محل ماجدة، قبل أن تنهي عبارتها تنطلق بالسيارة غير مبالية بالضوء الأحمر، وصفير عسكري المرور، تفزع صفاء، قلبها يثب في هلع لا تستطيع الإمساك به قبل أن يسقط من نافذة السيارة ويتدحرج على الأسفلت هنااا...ك، يلتقطه عسكري المرور فيسلمه لشرطي آخر، يودعه في كيس بلاستيك ويتحفظ عليه داخل خزانة بمكتب المرور، في حين تصرخ صفاء في وجه الفتاة أن تتوقف حالا وتعود لاسترداد قلبها، بهدوء قاتل تتطلع الفتاة إلى صدر صفاء المبقور وبلوزتها الملوثة بالدم، تقدم إليها علبة الكلينكس، وتضغط أكثر على دواسة البنزين، أخيرا تفتح عينيها على صوت ماجدة.

ـــ صافي.. اصحى يا جميل.. كل دا نوم .. بعد كدا لو شبطتي فيّ هاسيبك في البيت !..

تلاشى مفعول المخدر فلم يبق منه سوى شعور لذيذ بالنشوة والهواء البارد يصل إلى الكازينو المطل على النيل فيدفعها للبوح بالهموم التي فاضت عن احتمالها، كذلك حكت ماجدة عن حياتها كثيرا، والتي كانت تعتبرها مجرد مزحة بدأت منذ طفولتها لا بسبب فشلها في إقامة علاقات مع الصبيان ـــ بداية من تلاميذ مدرسة التوفيقية الثانوية، وصولا إلى جارها الملاكم ـــ فحسب، الحكاية لها أصل. في يوم بعيد اصطحبها أبوها لزيارة أهله في البلد بعد طول غياب، رمقتها جدة أبيها ـــ التي تجاوزت التسعين دون أن تفقد ضرسا واحدا أو شعرة

من رأسها ــ رمقتها بمودة وقالت «انتِ بنت حليم» تفرست فيها «هيّ مناخيره!» ثم أخرجت العجوز من عبها بعض الحلوى قدمتها لها، وعندما تجاوزت السادسة من عمرها وبدأت تراودها أسئلة من نوع «يعني ربنا جه لوحده؟ وإيشمعنى جورج بيخرج زي ما هو عايز؟ وليه خالتو إيفون سابت البيت؟ وفيها إيه يعني لما أنام جنبكوا ؟!» كانت أمها تجيبها دوما بالعبارة التاريخية «ماتحشريش مناخيرك في اللي مالكيش فيه» ثم تلهيها بسرد حكاية السندباد العجيبة للمرة الألف، وفي العاشرة من عمرها لاحظت ذات مساء عقب عودة أبيها من عمله عطرا نسائيا أليفا يفوح من ملابسه ميزت أنه عطر جارتهم، مما جعله يرشيها بساعة للراحة من المذاكرة لتنس الأمر، بعد قليل رمقها بابتسامة لم تفهمها وقال «ربنا يكفينا شر مناخيرك» رغم ذلك لا تذكر ماجدة حلوى الجدة، ولا حكاية السندباد المعادة، ولا عطر جارتها الفواح، فقط تذكر أن والدها أورثها أنفا كارثيا ينحشر رغما عنها في كل شيء. ورغم استطالة بسيطة في أنفها لم يكن الأمر بالسوء الذي تخيلته، على العكس كانت استطالة الأنف تمنحه مسحة كبرياء، لكنها لم تجد سببا آخر لابتعاد الصبيان عنها، إذا لم تكن مصابة بمرض معد فلابد أنها لعنة الأنف. الوحيد الذي صارحها بالسبب الحقيقي كان الملاكم، مدافعا عن أنف كليوباترا، وابتسامة بنيلوبي كروز، وعنفوان سالومي الذي لا يخطئه أي شخص به ذرة ذكورة، فقط... «بصراحة، صعب ارتبط ببنت أطول مني.. آه!» كان الرد بديهيا وصادما بقدر ما هو هزلي، حتى أنها أنهت اللقاء قبل أن يبدأ، قررت أن تنسى جميع الغراميات الفاشلة التي خاضتها ــ وبالتالي لم يكن غريبا أن تنسى

موعد صديقتها المنتظرة على كوبري قصر النيل ـــ لم يتسبب طولها المتزايد في متاعب قلبية فحسب، وإنما في تغيير مسار حياتها بعد سنوات، وستروي لها في لقاء آخر كيف تحولت المزحة إلى واقع يومي. تعددت اللقاءات بينهما في محاولة لاستعادة صداقة عمر، قررت ماجدة أن ترد الزيارة لصفاء وفزعت بمجرد أن دخلت المنزل من الفوضى، أوراق وثياب وبقايا طعام متروكة في كل مكان، أعراض الاكتئاب واضحة حتى على قطع الأثاث، على وجهها خدوش متناثرة كأنها عائدة من عراك مع قط شرس، عيناها ذابلتان، تحدثت عن الكوابيس التي تصحو منها وقد شوهت نفسها بأظافر حادة، تقول ماجدة أن هذه الخدوش تحدث عادة للرضع عندما تطول أظافرهم أكثر من اللازم، تنصحها باللجوء إلى طبيب نفسي صديق. لم تقل أنها جربت الطب النفسي وتمارين اليوجا والأعشاب وزيارة الأنبا بولس دون جدوى، لم تعلن عن أحلامها الأكثر وحشية التي تصحو منها تغسل يديها بشراهة هستيرية من دماء الأجنّة: ولم تكن كلمة الطب النفسي من الكلمات الدارجة في قاموس صفاء غير أنها الآن مستعدة لأي محاولة قد تعيد إليها توازنها، حتى أنها أصرت أن تذهب وحدها إلى عيادة الطبيب «نبيل ألفونس» دون توصيات من ماجدة.

كان دكتور نبيل في ذلك الوقت يستغل فراغه في لعب الطاولة مع عم حلمي التمرجي إلى أن يخطيء زيارته أحد المرضى، وقد أبرما اتفاقا على أن يتنازل عم حلمي لقاء كل مباراة يخسرها عن سيجارة من علبته لدكتور نبيل، في المقابل يتنازل الأخير عند خسارته عن قطعة بونبون يقدمها لعم حلمي، والهدف في الحالتين هو قتل الملل، وتقليل

التدخين بالنسبة للتمرجي العجوز رفقا بصدره الذي صار يئن مثل هارمونيكا، وتقليل الحلوى بالنسبة لدكتور نبيل حتى يستطيع الولوج من باب العيادة دون احتكاكات تخدش حياءه وملابسه، رغم ذلك كان كلاهما يغالط في النرد ويسرق في عدد الخانات، وكلاهما كان يتجاهل سرقات خصمه. منذ أن وضعت رجلها في العيادة أدركت صفاء أن هذا الكائن المدوّر البشوش لا يمت للطب النفسي بصلة، يبدو مهرجا في حجم فيل، عازف أوكرديون، مقدم برنامج طهي، أو موظف أمن ينام على حراسة أحد المتاجر، لكنه لا يبدو طبيبا، حجرة الكشف ذات إضاءة هادئة، وعلى الحائط صورة كئيبة لسيجموند فرويد، وأخرى لنبيل يداعب طفلة صغيرة خمنت أنها بنته، أحضر لها عم حلمي مشروبا ساخنا وانصرف، وأول ما فعله أن تسلل إلى مخبأ الطاولة في دولاب الاستقبال للاستيلاء على حصيلة ضخمة من البونبون المتروك قيد المراهنة، واستعادة سجائره التي خسرها في الجلبهار!

لأول مرة تكشف أسرارها إلى شخص لا تعرفه، فكرت في التراجع ألف مرة وراودها شعور كريه بأن هناك من يحشر أنفه في تفاصيل حياتها، واندهشت لأن الفحص الطبي للرحم كان أخف وطأة، لكنها تدريجيا استسلمت للبوح، عرضت على الطبيب مذكرات سامح، حكت عن لقاءها الأول به، كيف ساءها الانتظار على كوبري قصر النيل وحاولت الهرب من مغازلات أحدهم لتنزلق قدمها في لحظة داخل سياق درامي معد مسبقا لم تعرف شيئا عنه ــ أضافت أن زوجها كان يؤلف روايات لا يحاول نشرها ــ ولم تع في البداية أنها تتحرك في فضاء من الذكرى، وأن أسعد اللحظات التي مرت في حياتها مع

سامح كانت مجرد محاولة لإحياء قصة حب ميت منذ سنين. أما نبيل فلم يهتم كثيرا بقصة زوجها، كان ما يعنيه قصتها هي فحسب، أولا ليعفيها من الحديث أكثر عن الفتاة التي أسرت قلب زوجها لسنين، ثانيا لأن المشكلة الحقيقية لا تكمن في مذكرات زوجها، وإنما كانت تغفو بداخلها هي شأنها شأن كل البشر، المذكرات فقط هي تيار الموسيقى العاصف الذي أيقظ جروحها، أما الجروح فعادة ما تكمن في ماضينا، ولا داعي لأن نخبئها في ماضي الآخرين، تذكر نبيل فيلما أجنبيا شاهده يروي حكاية رجل تركته زوجته من أجل رجل آخر، والمدهش أن الزوج المهجور لم يعاني من شرخ أصاب كرامته، بل من فضول شديد لمعرفة كل شيء عن حياة هذا «الآخر» الذي استحق قلب زوجته لسبب ما، قد يكون وسامته، اهتماماته، كلماته، أو حتى الطريقة التي يحك بها أنفه. أحيانا يصعب علينا القبول بأن تمضي الحياة على غير ما أردنا لها، بالنسبة لكاتب روايات سابق مثل سامح اعتاد على صناعة النهايات التي يريد تبدو محاولته في استعادة حبه القديم طبيعية جدا، ولا تنفي بالضرورة حبه الجديد، وقد يرفض إن عادت به الحياة للخلف أن يبدأ حياته مع أي صفاء أخرى مهما طال بقائها في خياله، لأنها لن تعود نفس الفتاة كما عرفها في الماضي، بمرور الزمن تتحول إلى فكرة، إلى معنى أكبر، تنفذ مؤونة الذكرى فيلجأ للخيال كوسيلة وحيدة لإبقاءها على قيد الحياة، بعد استعادة صورها آلاف المرات والتشبث بالبقية الباقية من ذكراها تؤول إلى الشحوب والموت ما لم يهبها حياة أخرى صنيعة خياله، وبالنسبة لامرأة على مشارف الثلاثين من عمرها لا زالت تعتقد في وجود رجل بلا ماض على ظهر البسيطة يصبح القبول بالأمر

أصعب، نصحها بإعادة التفكير في حياتها بهدوء ودون اتخاذ قرارات جزافية، عليها أن تعيد التفكير فيما تعلمته، وما نشأت عليه، وما آمنت به، عليها أن تكتشف العالم كما تتورط فيه، ليس كما تخبرها به الكتب المدرسية وبرامج التوك شو، قد يساعدها على ذلك الدخول في تجارب من نوع جديد، التعرف إلى أناس آخرين واختبار قيما جديدة، هي مرحلة انتقالية عليها اجتيازها سواء أفاق زوجها من غيبوبته أم لا.

قبل أن تنصرف والأفكار لا زالت تعزف داخل رأسها وصلة روك آند رول، استوقفها، أخرج علبة صغيرة من دولابه الخاص قدمها لها، داخل العلبة قط صغير من الفرو، هدية لطفلها الصغير، رجاها أن تهتم بالطفل وألا تقحمه في مشاكلها الزوجية أو تعتبره ثمرة لعلاقة كاذبة، وأن تتجاهل خديعة زوجها الجاثمة فوق صدرها وتتفرغ لجروحها الخاصة، لا يهم إذا ما عادت الجروح تئن بفعل ذكريات منسية في أجندة قديمة، أو نتيجة إحساس مباغت بالخيانة، أو لأي سبب كان، والأهم في تلك الحالة هو إيقاف النزيف، فإذا ما تتبعنا النزيف سنجد أعمق الجروح تكونت فقط خلال اكتشافاتنا الأولى، البسيطة جدا والصادمة جدا في نفس الوقت، اكتشاف أن أبائنا ليسوا أفضل ولا أقوى من غيرهم كما كنا نتطلع إليهم بعيون مقعرة، أن حضورنا إلى الدنيا نتج عن قرص صغير لمنع الحمل لم يؤخذ في موعده، أن قنديل البحر يتمتع بثلاث حيوات إذ يولد أنثى، ثم يتحول إلى خنثى، ثم ينتهي إلى ذكر فيما نظل نحن سجناء حياة رتيبة. ثمة نجوم صغيرة تنطفيء في الروح كملايين الخلايا التي يفقدها الجسد خلال اليوم، لكن النجوم معروفة بضوئها المشع حتى بعد انطفائها بآلاف السنين، وهنا تكمن الخدعة.

الفتى الذي يعشق العصافير..

سماؤه بلا موسيقى..

عزيزي أرمسترونج..

بعد رحلة طويلة مع التاريخ، تبينت أن دراسة التاريخ لا تبدأ من كلية الآداب، إنما من قراءة الخبرات الإنسانية المعروضة على قارعة الطريق، والتي لم ينجح علم من العلوم في سبر أغوارها كما نجح علم التمثيل!.. لا تندهش، يقول خبراء التمثيل أن داخل كل منا ممثل مستتر هو المسئول عن عملية التواصل مع العالم الخارجي من خلال قدرته على التعبير عن مشاعرنا، أفكارنا، رغباتنا، ما نبوح به، و أحيانا ما ندعيه ــ وخد بالك قوي من «ما ندعيه» دي ــ صحيح أن الكذب شيء والتمثيل شيء آخر، مع ذلك يحتاج الكذب أحيانا إلى قدرات تمثيلية خارقة، ولكن ما علاقة هذا كله بالتاريخ ؟!..

للإجابة عن هذا السؤال اضطررت للخوض في بحث موسّع حول فنون الأداء التمثيلي، انطلاقا من فكرة بسيطة مفادها أن التعبير عن شيء ما يستلزم بالضرورة الإحساس به، فالطفل مثلا يتقن الصراخ فقط عندما يعرف الجوع الطريق إليه، وبهذا يتكون لديه مفهوم معين عن الجوع يستدعي إحساسا معينا يضاف إلى خبراته، والممثل يستطيع بقدر من الحرفية استحضار هذه الخبرات والأحاسيس في لحظة معينة ولو كذبا... لن أطيل عليك، فقد قرأت العديد من النظريات والكتب والأبحاث، وسهرت ليال طويلة أفتش عن ذلك الزر الخفي الذي يضغط عليه الممثل لاستحضار انفعالاته، بناء على سلسلة طويلة من

الأساطير المتوارثة حول التقمص والمعايشة والمعاناة النفسية الخارقة التي تذهب بالممثل إلى مرتبة المشعوذ، إلى أن وقعت عيني على عبارة في مقال منشور بعدد قديم من مجلة المسرح حول مدرسة الفعل الجثماني لستانسلافسكي، العبارة التي سيكون لها الفضل في تغيير حياتي، (إن مهمة الممثل لا تتعلق بالإحساس، إنما بتوصيل الإحساس) في البداية لم أفهم، بدت العبارة بسيطة وبديهية لكن عقلي المضطرب لم يجرؤ على التصديق، يمكن ساعتها بس حسيت إني خدت أكبر قلم في حياتي، اكتشفت إني بقالي تلاتين سنة عايشة برا العالم، فكرة الفصل بين الفعل والإحساس لم تكن واردة على ذهني، وهو ما أصابني بالفزع كأن الحقائق كلها قد تعرت أمامي في لحظة، لا لأني أدركت متأخرة أن العالم غير معني بمشاعري طالما هي حبيسة وجداني، ولا لأن قيمة هذه المشاعر لا تتوقف على صدقها، إنما على إمكانية توصيلها (ولو كذبا)، لكن الاكتشاف الأهم أن العالم يدين بصناعة التاريخ لمدرسة الفعل الجثماني تلك التي أسس لها ستانسلافسكي، وقد توصل العالم بدوره إلى درجة عالية من الحرفية تُمكّنه ببساطة من تصدير معظم الأحاسيس الكاذبة إلينا دون أن يتبناها !

لذا فالعالم يملي علينا دروسه منذ اللحظة الأولى، يوهمنا أن تلك الشموع والزغاريد تعبر عن احتفائه بمولدنا حين يؤدي دور القابلة، وأن الإهانات التي يوجهها إلينا تعبر عن حرصه المفرط على مستقبلنا الزاهر عندما يؤدي دور المدرس، وأن تلك السجون والمتاريس المفزعة مسخرة لحماية سواد عيوننا عندما يلعب دور الشرطي، وأننا مدينون له بوجودنا وأسمائنا و حتى حصتنا من الأوكسجين عندما يقوم بدور

الأب، وأنه يعرف عنا أكثر مما نعرف عن أنفسنا حين ينتقل إلى دور الإله، هكذا يتم حقننا مبكرا بشتى الأحاسيس الوهمية المراد بثها في الدم (الإحساس بالضآلة، بالخوف، بالذنب، بالعيب، بالخطأ، بداية من الكَخ والأَخ... وصولا إلى التكفير والأَخْ برضوا) لننصهر تدريجيا في عالم متخيَّل هو في الواقع صنيعة عالم آخر، عالم يجيد لعبة الفصل بين الفعل والإحساس، بين ما يضمره، وما يوحي إلينا به، إلى أن تأتي اللحظة التي ندرك فيها أن العالم يتلقى أجر خدماته على داير مليم بداية من زغاريد الاستقبال، وحتى قراءة الفاتحة على أرواحنا.

إلى هنا لم يعد علم التمثيل في ذاته هو ما يشغلني، بل دوره الخفي في تحويل المشاعر الإنسانية إلى حقل تجارب كبير يشمل المجتمع بأسره، فأنا مثلا ولدت في منزل بسيط لأب وأم يلعنان الزواج في كل لحظة، رغم ذلك فقد أمضيا عمريهما يعداني للزواج فحسب، في المنزل تعلمت من الأسماء ما يكفي لأن أقول «هذا أبي»، «هذه أمي»، «هذا عالمي الصغير»، وفي النهاية عرفت أن الكل غرباء، لا أحد يعرف أحدا، رحلت إلى القاهرة غير آسفة، عزائي أنها الفرصة لأن أصنع عالما من اختياري، خلال سنوات قليلة أصبح لي صديقة، وزوج، وطفل وحيد، وفي النهاية عرفت أن الكل غرباء، الكل يرحل وتبقى الأسماء على حالها، وتبقى المنازل لتوحي لنا بالألفة وبأن «هذا عالمنا الصغير» مهما بدا غريبا وموحشا، ثم يأتي دور المؤسسات بإيحاءاتها البديلة، يكفي أن تضيع ساعتين من عمرك أمام شباك موظف السجل المدني كي تحدد موقعك من العالم، وقد تمضي عمرك في التنقل بين شباك وآخر بحثا عن حرف سقط سهوا من آخر مقطع من آخر اسم لآخر جد لوالد الأم في

أوراق القيد العائلي، هذه الأمور لا تنتج عن خطأ أو سهو في ظل نظام بيروقراطي رشيد، هي مقصودة تمامًا، ومن خلالها يمكن للمؤسسات بمختلف أنواعها — بدءا من المدرسة ووصولا إلى السجن — أن توحي إليك بأنك مجرد رقم في خانة، وأن الحرف الناقص من آخر مقطع من آخر اسم لآخر جد لوالد الأم — ألف رحمة ونور عليهم أجمعين — قد يهدد وجودك ببساطة، حتى المؤسسات الدينية لديها إيحاءاتها الخاصة، وتتميز عن سواها بفائض كبير من الروحانية يسمح بتمرير كافة الأحاسيس المتناقضة التي لا تخطر على قلب، هي الأسرة الجاهزة لاحتوائك دائما وأبدا — وفي الوقت نفسه — فإن انتماءك لأحضانها الدافئة مشروط بإنكارك لسائر الأحضان الأخرى — وفي الوقت نفسه — دائما ما تختلف عن سواها بوضع طقوسها التمثيلية الخاصة — وفي الوقت نفسه — دائما ما تتشابه مع سواها في اتخاذ طقوس تمثيلية {دائما} خاصة، فلا عجب أن تكون الدراما بنت الطقوس الدينية وإن قدر لها العقوق، وقد تبدو هذه الطقوس في البداية مكملة لتعاليم الدين، إلا أنها سرعان ما تحل محل التعاليم لا لشيء إلا لقدرتها الفائقة على الإيحاء، عمرك شفت حد من كتر الكرم طلع له زبيبة «عطاء» ؟! أو مربّي «خيره» وقاصص «شرّه» ؟! أو داقق «أخلاق حميدة» على دراعه؟! عمرك شفت حد مكتوب في بطاقته الشخصية «ابن حلال وصاحب صاحبه»؟! هذه الأخلاقيات لا تخص سوى معتنقيها، ولا يمكن تداولها في سوق الفُرجة، وحدها الطقوس تؤمّن انتماءك لمؤسسة دينية دون غيرها، حتى تجد لنفسك بدل الأسرة أسرتين، وبدل الغربة غربتين، أما عن الأحزاب السياسية فيمكنك أن تعيد قراءة آخر ثمانية

سطور مع إحلال «الأحزاب السياسية» محل «المؤسسات الدينية» على ضمائني، ولن تجد اختلافا حتى في عدد الحروف.

هكذا أصابني الهوس برصد الأحاسيس الموجهة إلي من كل اتجاه، بدأت أنتبه لتصميمات الشوارع التي تفرض أنماطاً سلوكية معينة على عابريها، ربما تبدو قلعة رمسيس المسوّرة أكثرها بلاغة، هذه الأسوار على كافة الأرصفة لا تمثل النظام ــ كما يبدو من لونها الكاكي ــ بقدر ما تشير إلي تجاوزه، «إذا كنت تريد العبور فاقفز»، فإن لم تستطع القفز بدافع الخوف أو الخجل، شاهد رجل النظام يفعلها أمامك بكل ثقة وبكامل ملابسه الرسمية، ثم اتبعه مرتاح الضمير والبال، وإن لم تستطع يكون عقابك مزيد من السير في ظل أسوار، تنتهي بأسوار، تفضي إلى أسوار باحثا عن ثغرة الفرَج، حتى تستوعب الدرس في النهاية، «إذا كنت تريد العبور في هذا البلد فاقفز» وأقصد هنا عبور النظام لا عبور الميدان، في الشوارع وجدت من الإيحاءات ما يكفي لكتابة مئات الرسائل، وفي المترو رأيت ركابا أكثر من الهم ع القلب يتعمدون تلاوة القرآن بصوت مرتفع، عندما تلتقي شخصا حريصا على مطالعة المصحف في المترو تأكد أنه لا يفتحه في غير المترو، وقد تنتهي علاقته به عند أقرب محطة، إنما مجرد حيلة استعراضية تنطلي أحيانا على الركاب وأحيانا على نفسه و... كفى، أما حين يرفع عقيرته بالتلاوة في وجهك فهو لا يستعرض عضلاته الإيمانية فحسب، إنما يعمل على توصيل الاحساس الكريه للآخرين بأنهم مذنبين، خطاة، وفي حاجة للهداية ــ ومن المؤكد أنهم كذلك وإلا ما ابتلاهم ربهم بالركوب

مع واحد زيه! ـــ وخير الخطائين في تلك الحالة «اللي نازلين قريب» طبعا، أما غيرهم فقد ينال نصيبه من الهداية، أو من التقريظ، أو من الصداع وهذا أضعف الإيمان، لا تصدق أن صوت أخينا المرتفع نتج عن حالة من الوجد، فالوجد ورائحة الركاب لا يجتمعان، لا تصدق أيضا أنه لا يجد الوقت للقراءة طوال اليوم، خاصة وأن أكثر من ٩٠٪ من المصريين لا شغلة ولا مشغلة، وهو ما يفسر تعطل حركة المرور حتى أثناء ساعات العمل الرسمية، ومش بعيد يكون أصلا مش رايح في حتة بس راكب رخامة ! وفي الأسواق يصل الإيحاء إلي ذروته مع كل سلعة توهمك باحتياجك إليها، وبأن الحياة قد تتوقف بك عند نقطة معينة ما لم تشتريها، وما إن تشتريها حتى تفقد بريقها فورا، فتدرك متأخرا أن السلعة لا تخفف من شعورك بالرتابة مهما كانت حاجتك إليها، إنما يوهمك بذلك بريقها في أضواء فتارين العرض للحظة، والباعة أيضا خبراء متمرسون على تعاليم ستانسلافسكي منذ قديم، مهمتهم أن يشعروك بمدى جهلك بمزايا السلعة التي تريد، لو عايز قميص عندهم منه ١٠٠ نوع، لو عايز نوع معين عندهم دايما النوع الأحسن، وحتى لو استقريت ع النوع الأحسن عندهم منه ١٠٠ موديل، كل موديل فيه منه ١٢ لون ع الأقل، دا غير الإيحاء بالدونية اللي تقدر تعتبره عرض مجاني فوق البيعة، لو بتسأل على سلعة بالعربي لازم يقول لك اسمها بالإنجليزي، لو بتسأل بالانجليزي يبيع لك بالفرنساوي، ولو مذاكر كويس قبل ماتشتري ممكن قوي يتصل بالتوكيل علشان يعرف لك اسمها بالصيني، المهم يعقد أهلك والسلام حتى لو كنت صاحب التوكيل شخصيا هيبيع لك تحت اسم توكيل تاني {لازم} تكون مش

عارفه، حتى لو عايز تطفح كوباية قهوة لازم يسألك «لارج ولا ميديام ؟!» و «عايز عليها فليفور إيه؟!» و«مش عايز ليه؟!» و«هتاكل جنبها إيه؟!» و «علاقتك بالقهوة بدأت من إمتى؟!!!» إلى آخر الأداءات التي يتقنها الباعة بمهارة هوليوودية، وفي التليفزيون تجد موضوع اليوم وكل يوم هو الإيهام بحالة من الاستمرارية تخيم على كل بيت، الإيهام بأن الحال {الرائع دوما} على ما هو عليه، وأن ضحايا قطار الصعيد بخير ما دام موضوع اليوم هو ضحايا عبارة السلام، وسرعان ما تتوارى سيرة ضحايا العبارة لتحل محلها سيرة ضحايا التحرش الجماعي، حتى ضحايا التوك توك يجدون المساحة المناسبة لهم في ساعات البث اللا نهائية ما دام الهدف المنشود هو الإيحاء بحالة من التفريغ والتعبئة تحدث للمتلقي يوما بعد يوم، فيطمئن قلبه أن الأرض لا زالت تدور، وأن يسرا لا زالت طيبة، ونهال عنبر لا زالت شريرة، وسميرة أحمد لا زالت مثالية كما تؤكد جميع المسلسلات، وفي الفن كذلك ينمو الشعور بالاغتراب في المسافة بين همومك وبين فيللات مدينة الإنتاج الإعلامي، بين حياة النجوم المؤطرة بغلالة من الحلم لا تسمح للحدث الدرامي أن يقع في غير محله، وبين فوضى حياتك التي لا يسعها إطار، حتى تتساءل مع الوقت لماذا لا يقضي الممثلون حاجتهم مثلنا؟.. لماذا لا يهرشون أو يتعرقون أو تطفو بعض البثور على وجوههم؟ لماذا لا تخلع ممثلة الحجاب حتى في فراش النوم كما يخبرنا التليفزيون بينما لا ترتدي ممثلة أخرى ثيابها حتى في الطريق العام؟!.. في الحفلات الأخيرة لمحمد منير لاحظت من حركات يديه الحماسية الشهيرة أنه لم يعد يقوى على أدائها، بمعنى أن تلك التشنجات لم تعد نابعة من إحساسه بنشوة الموسيقى، تحولت

إلى عبء روتيني يقوم به فقط لنتأكد أننا أمام محمد منير، ويتأكد هو من وصول «الإحساس» إلى مستحقيه!

والخطير في مدرسة الفعل الجشماني أن الإحساس فيها يتبع الفعل (أي يتولد منه) وليس العكس، كتر النواح يعلّم البكا زي ما بيقولوا، ومع الوقت ينتقل « الممثل/ العالَم» من مرحلة أداء الفعل الجشماني المعبر عن إحساس معين، إلى مرحلة تصديق هذا الإحساس الناتج عن الفعل، يوهمنا بالكذبة ثم يصدقها بحكم العادة، هكذا يمكن للنجم أن يرحل تاركا ضوءه يعمل في صمت، والمدهش في علم التمثيل دونا عن العلوم الإنسانية الأخرى أنه فن، وبالتالي فهو يدرس الاحتمالات الموجودة وغير الموجودة، ما يمكن، وما لايمكن، كما يختلف عن سائر الفنون الأخرى بكونه يتجسد في صورة فعل، وإن كان الخطاب يستلزم الوعي، فإن الإيحاء عادة يستلزم اللا وعي، الخيال، ويمكنك أن تقول الخيال المدرَّب على استقبال هذه الأحاسيس وتحويلها إلى معايير أخلاقية تبعث على الرعب، هكذا قد يلجأ كهل لإقامة علاقة محرمة مع بنته [فقط] كي لا يقدم على الزواج من شابة في سن بنته، فيفضل علاقة محرمة في طي الكتمان عن زيجة محللة يزدريها المجتمع، وحتى لو فطنت الأم إلى طبيعة العلاقة بين زوجها وبنتها، ستفضل مباركة العلاقة عن التعجيل بفضيحة قد تهدم استقرار الأسرة، وقد تقدم البنت على ارتداء الحجاب إذا كان مفتاحا لحريتها، إذا ما علمت كيف يكون المجتمع متسامحا لأبعد حد، فهو لا يطالبها بالفضيلة، لا يمنعها من ممارسة الحب تحت الكباري، أو عرض نفسها في شارع جامعة الدوَل، أو اصطياد الغرباء من صفحات الانترنت، أو تدخين الشيشة في كافتيريا المركز التجاري،

فقط يطالبها بارتداء الحجاب، عمرك شفت مجتمع قلبه كبير كدا ؟!
هكذا ينشأ هؤلاء الأخلاقيون العتاة ببساطة، حتى القتل (ولنتوقف هنا لحظات احتراما لرهبته) عادة ما يأت مشفوعا بدوافع أخلاقية سامية ، وهكذا يا عزيزي ينشأ التاريخ في دولة الإحساس!

بالطبع لم يخطر شيء من ذلك على بال شكسبير عندما وصف الممثلين بـ «خلاصة تاريخ العصر» كما جاء على لسان هاملت، على كلٍ، ماذا يضير في أن أكتب إليك ما دامت رسائلي تحمل أسماء مستعارةً، ماذا يضير في استخدام أسماء زائفة ما دمت تعرف ـ وحدك ـ أنها أسماءنا البديلة، مهمة الرسائل عادة أن تصل فحسب بغض النظر عما تحويه من صدق وكذب، وقيل في المعنى: «الفتى الذي يخدع العصافير، محظوظ في الصيد كذلك.. بينما الفتى الذي يعشق العصافير؛..................»

فيرونيكا

— ١ —

في الصباح ذهبت إلى المستشفى، لم تمنع نفسها من إلقاء نظرة على سامح، حاولت أن تعيد التعرف عليه في ضوء كلمات الطبيب النفسي، وللأسف لم تر فيه سوى الرجل الذي خدعها، حاولت التحدث إليه كما طلب منها الأطباء لكنه لم يستجب لأي استثارة ولو بحركة لا إرادية، كانت تود لو بإمكانها الصفح أمام ضعفه وعجزه، تمنت أن ينهض من رقاده ولو للحظة، أن تنظر في عينيه مرة أخيرة بحثا عن جواب، كيف خدعتاها كل هذه السنين، لحظة واحدة تريد أن تقرأ خلالها نظراته، هل كان يراها حقا عندما ينظر إليها، ربما أكثر النظرات هياما كانت أكثرها كذبا واستغراقا في الماضي، قد تكون أجمل النظرات أكذبها، آه لو يفتح عينيه الآن، ليس بعد، إنها لن تقوى حتى على المواجهة، يلزمها بعض الوقت لتتمالك أعصابها وتعيد ترتيب أفكارها، وحتى هذه اللحظة ستتدرب جيدا على الوداع، تشكر السماء على تأجيل هذا المشهد الختامي رفقا بها، فلا زال أمامها مهام كثيرة، وواجبات أهملتها طويلا تجاه نفسها، غادرت المستشفى إلى أقرب محل لبيع ألبومات الكاسيت وطلبت من البائع أن يساعدها في اختيار مجموعة اسطوانات للأغاني الغربية، لم يكن لديها معلومات محددة عن الأغاني التي تريدها، عرض

البائع عليها نماذج متنوعة، التقت خمس ألبومات كيفما اتفق دفعت ثمنها وانصرفت.

لم تكن أميمة قد عادت من عملها بعد، غير أن الموسيقى تعلن عن وجود ابنها، على سلالم العمارة أحست صفاء لأول مرة أن ألبرت كينج يغني لها تحديدا "I will Play The Blues For You" وأن حيوية الإيقاع تخفف من توترها، هذه المرة يستقبلها جو بنفسه، يخبرها أن أميمة تعود من المكتبة في الرابعة مساء، لكنها تجد الحل الوحيد للتعامل معه وهو تقمص شخصيته، ومحاكاة أسلوبه الهجومي، لن تستسلم بسهولة كما فعلت في الجولة السابقة، تندفع إلى حجرته دون استئذان، تعبث في أغراضه، أوراقه، كتبه، الجيتار، أزرار الإضاءة الموزعة في الحجرة، وعندما يسألها عن سبب الزيارة تتجاهل سؤاله وتطلب قهوة بالحليب، يبتسم، يحييها بنصف انحناءة كما يليق بنادل محترف وينصرف إلى المطبخ فتدرك أنها نجحت على الأقل في إثارة فضوله، يعود ليجدها بدلت اسطوانة ألبرت كينج بأخرى لنينا سيمون، فيما ترف فراشات وهمية في سماء الحجرة على أثر الغناء "Please، Don't Let Me Be Misunderstood –" يتمايل مع الإيقاع فتهتز أقداح القهوة في يديه، يسألها إذا ما كانت تحب نينا سيمون، تدّعي أنه مطربها المفضل ـــ والحق أنها لم تكن قد سمعت بهذا الاسم من قبل ـــ تتسع ابتسامته فتداري ارتباكها وهي تقدم إليه الاسطوانات، «أنا مدينة لك باعتذار، أتفق معك أن التاريخ يحتاج لإعادة قراءة، غير أننا سنلعب لعبة، سنكذب، التاريخ يوفر لنا الآن الفرصة للتعارف، سنلتقي أسبوعيا بحجة دروس

التاريخ، وفي الواقع ستعلمني أنت دروس الموسيقى!.. في المقابل سأتنازل لك عن مئة جنيه أتقضاها من أمك كل شهر، أعلم أنك لست بحاجة لمساعدتي، لكني أحتاج مساعدتك، شرطي الوحيد أن تجتاز امتحان التاريخ، اعترف أن موقفك لن يغير شيئا سواء آمنت بالتاريخ أم لا، هل تعلم أن لي طفلا وحيدا، ليتني أملك شيئا أورثه إياه سوى أسباب الحملة الفرنسية، يجعلني ذلك أفكر في محنة أمك كثيرا، لن أرجوك أن تُبقي على الوتر الأخير الذي يربطها بالحياة، فقط اعتبر الأمر هديتك لي مالم تكن لها، حتى إذا اعتبرت موقفك من التاريخ ذا مغزى أخلاقي، فما جدوى موقف صادق حيال تاريخ كاذب، فكر في ذلك، وتذكر أنك لن تظل الهيبي الأخير مهما طال الوقت، لكن سيظل دائما هناك تاريخ ومجتمع وأسرة ـــ على الأقل ـــ لنجد ما نكفر به.»

تنصرف دونما تمهله الفرصة للجواب، لا تمهله الفرصة حتى لأن يخبرها أن نينا سيمون مطربة بلوز أمريكية من أصل إفريقي ولا يمكن أن تكون مطربها المفضل، لقد قطعت عليه الطريق بعهد صداقة غريب من نوعه، وتركته حائرا، ماذا تريد، وما يعنيها أصلا في نجاحه أوفشله، ومن يدريها أنه لن يفضح سرها لأمه، أما صفاء فكانت سعيدة باختبار مهاراتها التمثيلية لأول مرة، لم تكن يوما جسورة بما يكفي، لم تقو على الفعل و اتخاذ القرار ومواجهة المشكلات من قبل، أما الآن فيمكنها انتحال شخصيات خيالية أخرى قادرة على الفعل، قليل من الكذب يصلح المعدة، صحيح أن التمثيل لم يكن يوما من هواياتها لكن الحياة لا تكف عن المراوغة، لم تكذب توقعاتها، خلال أيام أتاها يحمل الجيتار على كتفه كعشاق الفلامنكو، بدأت الحصة الأولى بالسلم الموسيقي وأثبتت

فشلا ذريعا في تمارين «الفوكاليز»، لم تفلح في التمييز بين نغمة وأخرى رغم محاولات معلمها المستميتة، لذا فقد تركا الجيتار تحت رحمة علي وانشغلا بالكلام، حكى لها عن طفولته، انفصال والديه المبكر الذي ضاعف من وحدته، لم يعد يذكر ملامح أبيه إلا أنه يحبه، فهو يداوم على إرسال ألبومات الموسيقى له بانتظام، والتي ترفض أميمة شراءها وترى أنها تزيد من جنونه وإهماله لدروسه، لاحظت صفاء عن قرب ندبة دقيقة في حاجبه الأيمن يعود تاريخها إلى يوم ضربته أميمة لأول وآخر مرة عندما اكتشفت أنه يسرق الكتب من المكتبة التي عملت أمينتها لسنوات، اضطرها ذلك أن تخصص له مصروفا إضافيا لشراء الكتب، لكنه كان ينفق النقود على أي شيء ما عدا الكتب، اعتاد أن يسرقها من كل مكان على أن «الأفكار ليست ملكاً لأحد!»، حدثها كثيرا عن أمه التي ذكرها رامبو في قصيدة «القاعدون» ضمن ملايين الموظفين الحالمين بـــ «غراميات حقيقية لكراس لها سيور ومكاتب ملؤها الزهور»، حدثها عن توقف حياتها بعد الطلاق، عن حرصها الشديد لسنوات على راكور المنزل الكئيب كما تركه أبوه، وعن محاولاته منذ الطفولة لكسر الرتابة برسم شارب على وجه الجيوكاندا، أو ترك كتاب مفتوح داخل الثلاجة، أو وضع فردة حذاء في البونبونيرة الفضية، أو طبق طعام في البانيو، أو دس ثعبان بلاستيك تحت وسادتها، رغم ذلك كانت تكتفي بإعادة تلك الأشياء لأماكنها في صمت وكأن شيئا لم يكن، أهملت نفسها تماما وتفرغت لكل صغيرة وكبيرة تتعلق به، لكنه لم يجد في اهتمامها المبالغ فيه سوى ذريعة لغلق قلبها عليه حتى يعتريه الصدأ، لم يحتمل رؤيتها تنتحر ببطء بحجة أنها تمنحه حياتها، وأدرك مبكرا

واجبه في دحض مخططاتها وتعكير الأجواء من حولها بكافة الحماقات والإزعاجات الممكنة ودفعها لإيجاد مبرر لوجودها سوى أنها أمه وإن كلفه ذلك تدمير نفسه، ويبدو أنها لم تقرر الدخول في حداد أبدي على الزوج الغائب، إنما كانت تنتقم من نفسها فحسب لأنها أحبته يوما.

تعددت اللقاءات ولا زالت صفاء تعرج على السلم الموسيقى، اشترت جيتار للتدريب وسرعان ما ملّت من احتضانه، لكن الأهم من ذلك كان العبور من بوابة حياة جديدة يحمل جو مفاتيحها، كانت المبادئ النظرية للموسيقى تصيبها بالملل، فتكتفي بالاستماع إلى عزفه، أهداها نسخة من رواية باولو كويلهو «فيرونيكا تقرر أن تموت» ممهورة بإهداء «إلى فيرونيكا التي سترى نفسها»، وتدريجيا بدأت تستعير منه بعض الكتب خاصة في التاريخ والأدب، وعلم النفس، وفنون الأداء التمثيلي التي صارت لسبب ما ضمن اهتماماتها، أعجبتها رواية فيرونيكا حتى توحدت تماما مع هذه المرأة التي تفشل في محاولة انتحار، لتفتح عينيها مجددا داخل سجن كئيب على هيئة مصحة نفسية يستضيف حالات متنوعة من النزلاء المنبوذين بسبب خلافات على الميراث أو سلوكيات لا أخلاقية وحتى الهاربين من أحكام قضائية، والأطفال الملفوظين من ذويهم، والذين يختلطون بالسكان الأصليين للمكان «المختلين»، في هذه الفوضى تبدأ فيرونيكا في المقاومة، تعاود اكتشاف الحياة وتصر عليها في النهاية رغم قسوتها، ربما كانت رحلة فيرونيكا حقيقية أكثر من رحلة سانتياجو بطل «الخيميائي»، هكذا يعتقد جو رغم الشهرة الواسعة التي حققتها الرواية ـــ ودفاعا عن أوديب بطل رواية سوفوكليس ـــ لا يظن جو في وجود مؤامرة كونية كبرى تطمح إلى تحقيق هدف

أسمى للإنسانية، إلا إذا تجاهلنا النظر لاعتبارات الزمان والمكان والواقع المحيط، إذا فرضنا أن الجلادين الذين صلبوا يسوع فعلوها كي يصنعوا منه مسيحا عظيما في الأعالي وليس لتنفيذ إرادة الشعب، وأن بيلاطس لم يغسل يديه براءة من «دم هذا البار» كما جاء في إنجيل متى، إنما ليلقننا درسا تاريخيا في الحفاظ على البشرة، وأن إصابة لاعب الكرة الإيطالي أندريه بوتشيللي التي أفقدته البصر كانت شرط تفجر طاقاته الصوتية في مجال الغناء الأوبرالي، وأن الواقع الفني الذي دفع الممثل الأسمر أحمد زكي للانتحار ثلاث مرات خلال حياته لم يكن من قبيل الإقصاء والعنصرية لا سمح الله، إنما كان بمثابة تدريبات إعدا(م) ممثل!

منذ سنوات رفضت أميمة أن يتلقى ابنها دروسا في الموسيقى، ولم تتزحزح عن رأيها إلا بعد رسوبه في اختبارات القبول بالكونسيرفتوار التي لم يكن مؤهلا لاجتيازها، حينها فقط عدلت عن رأيها ربما يخرج من حالة الاكتئاب التي ألزمته حجرته لشهور، فإذا ما كان الكون ـــ الذي يدعي كويلهو معرفة نواياه الطيبة ـــ قد دبر ذلك الرسوب حتى يسمح لأميمة بتصحيح أفكارها في النهاية، فإن الكون ـــ كما يكشف سوفوكليس عن دوافعه الشريرة ـــ يشير إلى أن المؤامرة الحقيقية كانت على جو الذي فاته الامتحان بالفعل دون النظر لأي مبررات أخرى. لقد انفصلت أميمة عن زوجها دون حاجة لمؤامرة كونية، كان عدد خياناته المستمرة لها ـــ والذي فاق عدد أسفاره ـــ مبررا كافيا للطلاق، يومها لم يهتم الكون كثيرا بجو وما سيؤول إليه حاله، لم تكن علامة جديدة في طريق أسطورته الذاتية، تماما كما انتهت قصة حبه الوحيدة بالفشل، لا زال يذكر وجه «ملك» وهي ترحل عنه للأبد،

تجمع أغراضها القليلة في صندوق العربة النص نقل، وتمسح دمعها على باب العمارة بمنديل أصفر مطرّز يفوح منه عطر الياسمين، يومها أيضا لم يعيره الكون اهتماما، أدرك أن الكون لا يتسع لمشاعره،لا يعبأ بأفراحه وأتراحه، لا يهتم بمصائر الناس أو حركة التاريخ أو حتى نتائج مباريات الدوري العام، الكون لا يعرف أسرارنا الصغيرة، لا يعرف أن الفراق أصفر برائحة الياسمين.

صحيح أن تلك الهزائم الصغيرة ساهمت في تكوينه بنسبة ما، لكنها لم تجعل من الكون معلما حكيما على طريقة كويلهو، بل إنها لا مباليا على طريقة سوفوكليس، ألم يتبع أوديب من قبل جميع العلامات التي تشير إلى الهرب من مصيره، ألم تكن هي نفسها العلامات التي أودت به إلى مصيره، لكنك على الأقل ستجد في مأساة أوديب تحريضا واضحا على إعادة اكتشاف الذات، فيما يطرح «الخيميائي» وصفة سحرية للتوافق مع العالم وما يجود به من علامات في انتظار «تعريصة» كونية قد لا تأتي أبدا، وبالمناسبة فقد تطرق الحديث عن سانتياجو بطل «الخيميائي» إلى سانتياجو بطل «قصة موت معلن» لماركيز، كلاهما كان سانتياجو، وكلاهما كان صاحب حلم أو رؤيا، وكلاهما وقع في شباك مؤامرة كونية كبرى، الفرق الوحيد أن سانتياجو الأول يتآمر الكون لتحقيق أسطورته الذاتية، بينما الثاني يتآمر الكون على قتله. هما صاحبيّ الحلم، أو «صاحبيّ السجن» على حد قول صفاء، أحدهما «يسقي ربه خمرا»، والآخر «يصلب فتأكل الطير من رأسه».

أما الكون كما يراه جو فلم يكن بهذا التطرف أو ذاك، كان كونا

غامضا يحكمه سوء الفهم وقوانين المصادفة، حتى كنوزه لم تعد تحتاج لخوض عذابات روحية ورحلات في أعماق الصحراء، يكفي للحصول عليها كارت توصية من أي نوع، فقط تحتاج الكنوز إلى فارس من طراز خاص لا يشبه سانتياجو في شيء (لا الأول ولا الثاني)، تتوفر فيه شروط أخرى يفرضها واقعه المحيط «الخسة، الانتهازية، المرونة، حبذا لو كان أول حرف من اسمه محجوب عبد الدايم ــ وللاستعلام انظر القاهرة الجديدة لنجيب محفوظ ، ...» بهذه الشروط المقررة سلفا يتمتع محجوب وأحفاد أحفاد أحفاده من بعده بكنوز البر والبحر بينما ضحايا باولو كويلهو يحصدون خوازيق الرحلة الجهنمية بمختلف أحجامها عن طيب خاطر، بالإضافة لذلك لاحظ أن سانتياجو لم يصادف (يصادف فقط) في رحلته أمين شرطة واحد، ولا لائحة حكومية واحدة، ولا مانشت صحفي واحد عن عملية إبادة جماعية واحدة، ولا وعظة أخلاقية ــ عن عذاب القبر ــ واحدة، ولا وجبة مسرطنة واحدة، ولا محاولة اغتصاب واحدة، ولا تامر حسني واحد، إلى آخر العاهات الروحية التي حرص كويلو على السكوت عنها حفاظا على أجواء روايته، لذا فالضحايا لا زالوا ضائعين ــ وإن لم يكن في الصحاري ــ فيما يتآمر الكون الرحيب على «دين أبوهم»!

... قليل من الموسيقى، وقليل من المناقشات الحادة فيما يخص الكتب، وباقي الوقت كان يحدثها عن تفاصيل حياته باسترسال، لأول مرة تلتقي شخصا يستطيع أن يبوح بأسراره بتلقائية مفرطة، هل تستحق الأسرار الرازحة على روحها الكتمان فعلا، قد يكون البوح أخف وطأة، لكن الوقت لم يحن بعد لتكشف له عن همومها، إذا كان لابد من الكلام

فالأحرى بها أن تذهب لعيادة نبيل، على الأقل هو يتلقى أجز الإستماع إليها عند كل زيارة، جلست في استقبال العيادة في انتظار دورها، كان نبيل مشغولا مع مريض آخر عندما قدم لها عم حلمي شيئا لتشربه، دقائق وخرجت من حجرة الكشف امرأة تضع نظارة سوداء على عينيها، لم تصدق لأول وهلة أنها ماجدة.

ـ ٢ ـ

كذبت ماجدة للمرة الأولى بشأن غرامياتها القديمة حين حكت لصفاء عن تفرغها التام للعيادة، صحيح أنها صمدت لسنوات بإرادة تفوق طاقات الكهنة، رغم ذلك ظل حنين ما مشوب بالرغبة يذكرها بمراحل فشلها الأولى، ثمة سحر خاص يجذبها إلى أيام الصبا، وقد وجدت عزاءها الوحيد في رفقة الشبان دون العشرين من عمرهم، وتدريجيا طورت مهارتها في الإيقاع بهم فرادى داخل سيارتها واصطحابهم في الليل إلى العيادة سرا، في البداية تمزقت روحها بين الخوف وحب المغامرة حتى تحول الأمر مع الأيام إلى عادة أصيلة تستدعي استشارة طبيب، استجمعت شجاعتها وذهبت إلى عيادة د. نبيل ألفونس تحمل شكواها، لكنه لم يبد اهتماما كبيرا، قال أن المراهقة تجد طريقها دائما إلي القلب مهما طال الهرب، أحيانا ما تجيء قبل أو بعد الأوان، وغالبا ما تؤدي محاولات كبحها لنتائج عكسية، لا عجب أنها حاولت أن تنجح الآن فيما فشلت فيه منذ سنين، وقد نجحت بالفعل، لذا لم تعد أحلام الصبا تؤرقها، ولا عادت أطوار المراهقة تناسبها، ولذلك هي الآن تبحث عن

عاشق من نوع آخر، وعليها أن تجده خارج العيادة فحسب.

بعد أيام عادت ماجدة وجلست تبكي أمام نبيل، تعترف أنها لم تجد الشجاعة الكافية لتصارحه بأن الأمر محض وهم، فقد كانت تستقطب الشبان إلى العيادة لا لشيء إلا للحديث معهم لساعات، ثم طردهم شر طردة، نعم، لم تقم معهم علاقات من أي نوع، وحيده الفشل القديم يعود ليتجسد أمامها ليلة بعد أخرى. ربما لو تطور الحديث مع أحدهم كان سيفضي إلى علاقة حقيقية، لكن أحدهم لم يأت من أجل الحديث، لذلك انتهى أمرهم بالطرد، وإلى هذا الحد تتحول عقدة ماجدة إلى عقدة و«شنيطة» على حد تعبيرها، أما السبب الوحيد لحرصها على تلك الاعترافات أن (نبيل) لم يعاملها كما يليق بطبيب متخصص، اتخذت علاقتهما طابع الصداقة، وأحيانا كانت تجد نصائحه غير علمية إطلاقا بل تصل إلى حد التجريم ومحو اسمه نهائيا من سجل نقابة الأطباء، كان يطلب منها إيجاد صياغة لحياتها تمكنها من التوافق معها بغض النظر عن أي اعتبارات أخلاقية، كان قد قرأ قصة قصيرة عن دجاجة عقيمة سطت على بيض دجاجة أخرى، مرت الأيام والدجاجة ترعى كذبتها حتى خرج الفراخ الصغار إلى النور وإذا هم يكبرون ويمرحون ويقاقئون من حولها فيذكرونها بعقمها في كل لحظة، وتذكّر عبارة نيتشه «الكذّاب ينفي الحقيقة التي تخص الآخرين فقط، أما غريب الأطوار فينفي الحقيقة التي تخصه هو»، وبالنسبة لماجدة فقد راقتها كثيرا فكرة العثور على عاشق من نوع آخر التي ألهمها نبيل إياها، وإلى أن يلوح هذا العاشق في الأفق قررت أن تداوم على استشارة نبيل في شئونها الخاصة بدافع

الوحدة فحسب، هذا ما قالته لصفاء حين سألتها عن سبب وجودها في العيادة، وكانت تلك كذبتها الثانية.

أما صفاء فقد عانت ما بين واجباتها تجاه المنزل والمدرسة وحلقات الدروس، وبين حياتها الجديدة كتلميذة تعلمت درسها الأول نقلا عن بريشت : «من بين كل ما هو يقيني نجد الشك أكثر يقينا»، توطدت علاقتها بأميمة التي بدت سعيدة بإقبال جو غير المتوقع على دروس التاريخ الوهمية، لقد حاولت الحفاظ على طفلها الوحيد قدر استطاعتها لعشرين عاما، حتى ألبومات الموسيقى كانت تشتريها سرا وتداوم على إرسالها له بالبريد السريع داخل أظرف تحمل اسم أبيه، كبرهان وحيد على أبوته، لم تشأ أن تفسد صورة الأب في ذاكرته للأبد، مع ذلك لم تشعر يوما بوجوده في حياتها، حتى المرات القليلة التي كانت تحضنه فيها كانت تشعر بروحه أبعد ما تكون عنها، روحا قلقة تسيطر عليها عفاريت تشايكوفسكي، أو عفاريت تيتا نبوية، أو كلاهما، الأنيس الوحيد لها كانت خطابات أخيها الواردة من ألمانيا بانتظام، تعيد قراءتها في أوقات الفراغ، تمسح دمعة فرت من عينها وتبتسم، تشعر أن روحه لم تزل معها وإن كان جسده في ساليزبرج، أما جو فكان جسدا ينمو أمامها يوما بعد يوم بينما تحلق روحه في مكان بعيد. فكرت صفاء في كلام جو بخصوص سوء الفهم الذي يحكم علاقات البشر على مر السنين، غير آسف على قرار التخلي عن أمه بدافع الحب، يقع في نفس الخطأ حين يخفق في قراءة مشاعرها، ألم تفرض عليه حصارها أيضا بدافع الحب، رغم ذلك فالدوافع لم تنتج في النهاية حبا متبادلا بين أم وابنها تحت سقف واحد، بل شعورا مكثفا بالوحدة لدى الطرفين،

لمجرد أن أحدهما لم يتحرك في اتجاه الآخر خطوة، طالما تصر أميمة على صياغة حبها في صورة متاريس يحاول جو تحطيمها بكل ما أوتي من حب، «ويلي من الأحمقين!»، في نفس الوقت وفوق نفس السقف عاشت صفاء مع سامح دون أن تعرفه، أحبته ولم تعرفه، بينما أحب سامح وجودها في الفضاء الواسع الذي خلفته فتاته، بمعنى آخر لقد تحقق الحب بينهما بالفعل رغم اختلاف الدوافع، كلاهما كان يحب شخصا افتراضيا، غريبة هي لعبة الدوافع خاصة حين تؤدي بنا إلى نتائج عكسية، رغم ذلك فالقانون الجنائي مثلا لن يعترف بالحب كدافع قوي لقتل عجوز تعاني من آلام السرطان رفقا بها، وبدلا من ذلك سيبحث في اختفاء ماشاء الله دهب أو غويشتين عيار ٢٤ من حوزتها، هناك أشياء أدق من أن يحملها الكلام أو يستوعبها القانون، لا يقتصر الأمر على دفاع «ديمتري كارامازوف» عن نفسه في رواية ديستويفسكي، كان ديمتري يرثي الإنسانية بوجه عام وإن بدت محاولة فردية يائسة للإفلات من الشنق، جميع التفاصيل الصغيرة التي يستعرضها ديمتري خلال التحقيقات كأدلة على براءته هي ذاتها الأدلة التي يعتمد عليها المحققون في إدانته بتهمة القتل، بذلك يقدم ديستويفسكي مثالا خالدا على سوء الفهم، على سبيل المثال تهديد ديمتري لأبيه بالقتل أمام شهود عيان أكثر من مرة وعلى مدار شهر، هو آخر شيء ممكن أن يقدم عليه قاتل مهما بلغ به الغباء، رغم ذلك لم يتفهم القانون أنها تهديدات رجل عاجز عن الفعل، «لقد هدّأت كرهي له خلال هذا الشهر» ... بعد أن يضطر لضرب الخادم العجوز جريجوري بالمدق النحاسي على رأسه، يعود إلى حديقة المنزل بدافع الشفقة ليطمئن على العجوز المضطرج في

دمه، لا ليتأكد من موت الشاهد الوحيد على جريمته كما يدوّن وكيل النيابة في محضره... النقود التي كان يخفيها تحت ثيابه لم تكن ثروة أبيه المصروع بل نقود خطيبته كاترينا، والتي كان يتردد بين سدادها وبين ادخارها للهرب مع معشوقته جروشنكا، لكن وكيل النيابة يسأله لماذا لم يعتذر لكاترينا فقط أو يخبرها أنه بحاجة للنقود، يطالبه باسم القانون أن يكون وغدا، أن يستأذن من خطيبته ليبدد أموالها على امرأة أخرى، أو أن يكون قاتل أبيه!.. نكاد نضع أيدينا على سوء تفاهم آخر لم يكشف عنه ديستويفسكي، فعندما يترك وكيل النيابة الخيار لديمتري بين أن يكون نذلا أو قاتلا، هو ببداهة لا يفعل ذلك لأنه يريد تدميره أو إذلاله، والأرجح أنه فقط يريد إتمام القضية على مايرام، استعراض مهاراته أمام هيئة التحقيق، أو حتى إنهاء الجلسة في أسرع وقت كي لا يتأخر على عيد ميلاد ابنته ولو لمرة. لم تكن صدفة أن يستخدم الكاتب شخصيات الأشقاء الثلاث في التعبير عن الروح من خلال «إليوشا»، والعقل من خلال «إيفان»، بينما يجسد ديمتري ــ أكبرهم ــ وحده العواطف، «أنكم لم تصدقوا كلمة واحدة مما أقول، وذلك خطئي أنا لا خطؤكم أنتم، كان عليّ أن أصمت بدلا من أن أفضي بذات نفسي أمامكم» لهذا الحد تستعصي العواطف الإنسانية على الفهم، «يعني ديستويفسكي طق من شوية ؟!»، كل يوم يخترع البشر لغات جديدة للتعبير عن مشاعرهم بالحركة والصوت واللون والكلمة والنظرة ورغم ذلك تزداد المشاعر تعقيدا، تعددت الأسقف والخواء واحد، لابد من إيجاد طريقة لحل هذا الالتباس، حتى لا تضيع دفاعات ديمتري عن الإنسانية سدى، «يخيل إلىّ أيها السادة أنه ليس من حقكم أن تسألوني

عن عواطفي»، في لحظة درامية نادرة يجد دفاعه الوحيد عن نفسه ضد سلطة القانون أنه إنسان، ليس طرفا في معادلة رياضية ولا ينبغي أن يكون.

غير أن الاكتشافات لم تنتهي بعد، في كل ليلة كانت صفاء الراقدة في مذكرات سامح تزور صفاء الزوجة في أحلامها لتذكرها بوعدها «سآخذك في رحلة». أما الأخيرة فكانت تفتح عينيها يوميا على نفس السؤال، لمَ لمْ تسنح لها الفرصة للتعرف على غريمتها حتى الآن، يسوقها لذلك الفضول الذي تحدث عنه نبيل حول اكتشاف الآخر، أدركت في النهاية أن غريمتها مجرد ذكرى، مجرد تعبير مجازي عن إحساس خاص بالفقد، ورغم الحراك الذي أحدثه جو في حياتها منذ أن قطعا عهد الصداقة فقد حرصت على ترك مسافة بينها وبينه تحسبا لأي شطحات جنونية قد تحولها إلى صورة أخرى من ماجدة، وتكون ثاني امرأة ترحل من العمارة بفضيحة جديدة تضاف إلى رصيده، لكنه لم يكف عن كسر توقعاتها يوما بعد يوم، حكى لها قصته مع ملك بالكامل دون تحفظات، ملك خياطة مغمورة تعمل في إحدي الفرق المسرحية، جعلت من شقتها الصغيرة متحفا للأزياء العجائبية، تسهر على حياكة فساتين الأميرات ثم تكمل عشاءها نوما، أحيانا تستدين الإيجار من أميمة حتى يأتيها الفرج، وتضطر لتأجير غرف الشقة للممثلين الهواة الذين يبحثون عن مكان لتدريباتهم بأسعار زهيدة، وفي الغالب كانت التدريبات تنتهي إلى قصص حب تبحث عن مأوى، بخلاف الفقر والوحدة وبعض الحشرات الزاحفة كان منزلها مسكونا بالحياة، وفيه وجد جو مساحة لتحرير العفاريت الكامنة في صدره بعيدا عن حداد أميمة، لم تكن جميلة أو على حد تعبير

أميمة كانت بطاقتها الشخصية دليلا وحيدا على أنوثتها، مع ذلك فقد تملكه عشق حقيقي تجاه ملك التي قادته إلى عالم سحري، إلى الآن لا يعلم أحد سواه سر هذا الحب النابع من رغبة في المعرفة، ليست المعرفة في حصص العلوم والكتب التي يسرقها من وراء أمه، إنما في العوالم البعيدة المسكونة بالجوع والوحدة، ليست في مآسي المسرح العالمي، إنما في محاولات الصعاليك من أنصاف الموهوبين للبحث عن أنفسهم في تلك المآسي، في عيون سوداء منهكة وأصابع نحيلة لم تعد تحس بوخز الإبر، رغم ذلك دائما لديها ما تقدمه له بداية من الشعرية بالسكر وحتى شهد قبلاتها، عادة ما تكون الحاجة للمعرفة دافعا للوقوع في حب «مفستوفيلس» نفسه، فقط لا يحاول الناس اقتفاء الأثر، والأسهل من ذلك تحميل المسئولية الكاملة لفرويد، والتسليم بوجود عقدة ورثها فلليني نقلا عن أوديب وصولا إلى جو، والأمر في الواقع أبعد ما يكون عن الهوس بالأمهات، فقد كانت لجو أم وحيدة يسعى للتخلص من سلطتها بأي ثمن، وكثيرا ما كان يختبيء لدى الجيران هربا من المدرسة، لكن أحدا لم يرحب به سوى ملك وأحيانا سامح، بدأت مراحل التكوين بين اكتشاف المشاعر في شقة ملك، وبين البحث عن أسماء ومعاني محددة لهذه المشاعر في مكتبة سامح، دفعه سامح لقراءة الروايات وادعى لفترة طويلة أنه يعمل على كتابة رواية كي يصبح كاتبا مثل سامح، في كل يوم كان يستشيره في أشد الأمور العاطفية تعقيدا وأكثرها حرجا حول أبطال روايته، ولم يعلم سامح حتى اليوم أن خبراته العاطفية التي لقنها للطفل في سبيل الدراما كان الأخير يستثمرها في أحضان ملك، ولا أن الكتب التي كان يهديها له في كل زيارة كانت مسروقة، أما محاولاته في

كتابة القصة فقد انتهت بأول وآخر قصة كتبها، وبقدر ما يكره هذه القصة لا ينكر أنها كانت نقطة تحول في حياته.

ألف كذبة وكذبة ..

«تأليف : يوسف شكري»

[.. الحمد لله الذي سلبنـــــي كل نعمة فمنحنـــــي نعمة الخيال، والصلاة على النبـــــي الذي أجار غزالة البر لما استجارت به من شر صاحبها اللئيم، حدث ما حدث في طقس أحمق، كان صياد السمك رجلا عاديا، يشبه سكان حوض البحر الأبيض المتوسط، يلتقي في ملامحه الأوروبيين بالآسيويين بالأفارقة، أما زوجته فكانت مخلوقا غريبا كما تعلمون، كانت عالية مثل صار خرافي، رأسها مخروط هائل أملس، تغطي ساقيها الثخينتين فروة شوكية، فمها في سرتها، ويخفق فوقه نهد كبير وحيد، أما عيونها الكثيرة فتحيط بكتفيها مثل خط الاستواء، لم يكن صيادنا قانعا بزوجته، ولم يجد العزاء في السمكة الذهبية، قلت له مرة «لماذا تزوجتها؟» قال «كان لابد لي من زوجة ولم تكن على الجزيرة امرأة غيرها، وبعد إذ تزوجتها تدفق المستوطنون على الجزيرة وازدحمت شواطئها بالنساء الجميلات»، طالما غالب صياد السمك التعيس غيظه المسعور كحية، طالما تقلب على الرمال الهشة في غمرة الطقس المجنون، طالما هرب إلى أعالي البحر ليغرق هواجسه لكنه عاد دائما بالصدف الخالي والتريف ..]

كان الواقع من شهريار أن نفسه لم تسل عن قصص شهرزاد منذ انتهى في الليلة الواحدة بعد الألف، وإنما كانت تتحرق شوقا إليه إذا أقبل

ميعاده المعهود من الليل، وتتحرق شوقا إليه إذا أقبل النهار، وكانت تشتغل بما تشتغل به من شئون الملك والقصر، ولكنها كانت تحس دائما كأنما فقدت شيئا، وكأنما لا تستطيع عنه صبرا، وكأن الأمور لن تستقيم لها إلا أن تجد هذا الشيء: «الحكاية»، المكان الذي تستطيع فيه المخيلة أن تتفجر كما لو كان الأمر في حلم، هي جنة الأفراد الخيالية، الأرض التي لا أحد فيها يملك الحقيقة، إن قص القصص بالنسبة إلى التعساء الذين يتحرقون ليكونوا غيرهم هي حيلة من أجل التخلص من أجسادهم وأرواحهم المملة، بهذا كله وبأكثر من هذا كانت نفس شهريار تضطرب حين آوى إلى سريره من تلك الليلة، وقد أرقته هذه الخواطر شيئا ولكن النوم لم يلبث أن أسرع إليه، فهم أن أجمل جانب من جوانب النوم هو نسيان البعد المبكي ما بين الشخص الذي يكونه الإنسان والشخص الذي يريد أن يكون مكانه، وما بين ما يشعر به وما لم يشعر به، وبين ما رآه وما لم يره، وبين ما يعرفه وما لا يعرفه أبدا، ثم سمع فيما يسمع النائمون حين يلم بهم طائف الحلم كأن قائلا يقول له «أنت ضعيف ومغرور، أنت مشوق إلى قصص شهرزاد لا تستطيع عنه صبرا، فهل علمت أنها هي أيضا مشوقة إلى هذا القصص لا تستطيع عنه إعراضا؟..»

[... ليلة البلور الأسود، هبط صيادنا تحت أثقال لواعجه، خطف من قاع قاربه بلطة مشحوذة حتى ليستطيع المرء أن يحلق بها لحيته، خفش في الرمل نحو كوخه المتطامن تحت الريح والظلام، تطلع عبر النافذة الوحيدة، شاهد زوجته المتمددة على المصطبة المفروشة بالقش والحسك، دفع الباب بحذر شديد، وقف فوق رأس زوجته النائمة،

حدق فيها بهلع، وقبل أن يتراجع أمام زحمة الشكوك والهواجس، قبل أن يرخي عضلات ذراعيه البائستين كفرعي شجيرة عاقر، رفع البلطة إلى أقصى مبلغ فوق رأسه وأهوى على عنق الزوجة الوادعة ...]

«أحب القصة ذات النهاية السعيدة أيضا، لكنـــــي لا أعرف كيف أكتبها، أما كان لي مرة شباب محبوب، بطولي ورائع حتى ليكتب لي صحائف ذهبية؟ سيكون في ذلك حظ مفرط، قل ما شئت والتمس عند القائلين ما أحببت من وصف الجنات الرائعة والرياض البارعة والحدائق الملتفة والغابات المتكاثفة والأزهار المنسقة والغدران المصفقة، فكيف تريدني أن أصف لك ما لا يوصف، وأن أصور لك ما لا سبيل إلى تصويره»، لقد انعقد لسان شهريار لأنه أحس وعجز عن تصوير حسه. إنه الموت، الموت كما يتبدى لحي، «إني أرى الموت، وألمسه، وأشمه، وأعاشره»، فالحب لا يقتله شيء كما تقتله المعرفة «أتعرف من هؤلاء الفتيات؟ هؤلاء الفتيات هن اللاتي لم ترسلهن إلى الموت لأن شهرزاد شغلتك عنهن بما قصت عليك من أنباء الماضي، وبما تقص عليك الآن من أنباء المستقبل، وستشغلك عنهن بما تعرف فيها وما تنكر منها من وضوح وغموض»، لكنه لا يريد أن يحبسها لأشواقه، بل تطير لنفسها من أجل المها هي. يريد أن يكون النور لعينيها دون أن تغمضهما عليه وتحبسه فيهما. «انقضى هذا، أعرف اليوم أن أحيا للجمال، كأننـــــي آدم الذي يبحث عن أرضه الجديدة، عن ميلاده الجديد. ولا تعوزني أبدا المادة الخام، يعوزني فقط القدرة على تشكيلها»..

[... انفصل الرأس عن الجسد دون نأمة، اجتاحت الصياد الملعون حمى وحشية وأقبل على الجثة يقطعها أشلاء وهو يهذي، «لا، لا، لن

احمل وحدي كل هذا العذاب بعد اليوم، لن تتقطع شراييني على نصال الدهشة الدائمة، لن تكون بشاعة الزمن والمسافة قسمتي وحدي»، لملم الصياد المنكوب أشلاء زوجته الشهيدة، دسها في كيس ضخم وحملها إلى البحر، كانت العاصفة تلف أمواج البحر الهائج كشيخ يلف سيجارة، وقف على الشاطىء الزنخ وفي الماء الداكن المحتقن بالأسرار أفرغ كيسه الرهيب، هرعت أسراب الأسماك الجائعة، وراحت تقضم الأشلاء بأسنانها النهمة المدببة كمسامير نعش، قذف الصياد بشبكته الوحشية واطبق على كومة من السمك المذعور ...]

هكذا أمشي مع الحكاية حتى آخر العمر، ولا أبنيها، بل تبني نفسها، مثل المركب الخالي الذي تركناه بلا صاحب، حتى بلا بحر، وبلا حتى شاطىء، لا لأن الكلمات قليلة، ولكن لأن الفراشات المتعبة تنام على شفاهنا، مع ذلك أحسب أنـــــي فرغت اليوم من سرد جحيمي..

[... في الصباح أكل سكان الجزيرة أسماك الصياد، وسرعان ما امسخوا مثل زوجته ؛ لطالما تمنيت أن أذرف نشيدا غير هذا...]

* * *

عندما عرض جو قصته على بعض معارفه، جاءت ردود الأفعال تتلخص في أربعة أسئلة رئيسية :

١ ـــ دي قصة ؟! .

٢ ـــ انت اللي كاتبها ؟!!

٣ ـــ انت اللي كاتبها بجد ؟!!!

٤ ـــ يعني إيه «عواجه» ؟!!!!

مع ذلك لم يخطر ببال أحد أن جو لم يكتب من القصة حرفا واحدا، بل هي سلسلة متصلة من السرقات الأدبية، جمعها بصبر وأعاد بنائها كمحاولة للقص بطريقة القص واللصق، وما أحزنه أن أحدا لم يقدر مزحته حق قدرها، أو يضبطه متلبسا بالسرقة، حتى سامح لم يتعرف على حكاية صياد السمك المنقولة بالحرف من قصيدة «إلى أن يصدر الحكم» رغم أنها منشورة في المجلد الثالث من الأعمال الكاملة للشاعر سميح القاسم الذي استعاره جو منذ سنوات من مكتبة سامح نفسه، أما نقطة التحول فكانت عندما اقترحت عليه صحفية صديقة نشر القصة في الجريدة التي تعمل بها، وبين استحسان بعض القراء واستهجان بعضهم للقصة لم يجد جو قارئا واحدا يفطن إلى الخدعة، ولا ناقدا واحدا يبشر بميلاد كاتب عابث، انتابه إحساس بالقرف ولم يعد لكتابة القصة منذ أدرك أن لا أحد يقرأ السطور أساسا ناهيك عما بينها، وأن الحكايات لم تعد مسحورة بما يكفي من الضوء والجنيات والحور، فاقتصرت على صراعات المسوخ منذ تكفل شهريار بكتابتها. وفي مرة أخرى حاول كتابة الأغاني لكنه وجد كلماته تستعصي على الموسيقى، يذكر منها ..

« الجحيم ..
طفل مؤدب
ينام قبل فيلم السهرة
ويصحى قبل جرس المدرسة
بيحافظ على البيئة ..
وابتسامته ..

وتذكرة الأوتوبيس
« التي تقدم عند الطلب»
بيخاف على الحيطة من أي شخبوطة
أو مسمار يعلق عليه
صورته !»

في النهاية تفرغ للموسيقى دون رجعة، خاصة وأنها لن تقوده إلى مناقشات من نوع «دي قصة ولا مناظر؟.. وانت اللي كاتبها ولا مستلفها من حد؟.. والحداثة أدب مش هز طيازا.. والسؤال الأزلي عايز تقول إيه؟ هاه؟!.. انطق؟!.. اعترف؟!.. اسمك الحركي إيه يا له؟!»، بالإضافة لأن المثقفين والجهلة والقطط والكلاب والأفراس والزهور على السواء يتمايلون مع النغم. لذا لم يكنَ غريبا أن يجتمع بصفاء على الموسيقى رغم كل الفروقات، أما هي فقد لاحظت تعلق طفلها الشديد بجو، وكانت تخشى عليه من عدوى الجموح المبكر، أما جو فلم يكف عن ملء رأس الصغير بخرافات عن الجيتارات التي كانت حيوانات زكية حكمت العالم في قديم الزمان حتى أزعجت بضجيجها الآلهة ـــ نعم الآلهة، لقد كانوا كثر يا علي، واتخذوا لبعضهم من بعضهم أزواجا ليجدوا ما يتصارعون عليه، قبل أن يصيبهم الانقراض التدريجي ليسكنوا المعابد والمتاحف آخر الأمر ـــ غضبت الآلهة على الجيتارات فمسختها قوالبا خشبية بكروش بيضاوية مسطحة على شكل حبة كمثرى تنوء بحملها ساق وحيدة، موثوقة بحبال مرهفة ترتعد من لمسة إصبع فتئن، وأصل الحكاية أن إلهة مراهقة أصابتها لوثة الموسيقى فانشقت عن السماء وقررت أن تسكن الأرض، أرادت أن تدرس

الفلامنكو بشغف وكلما حاولت كانت قدماها تغوصان في السحاب الرخو، قالت هي الأرض ربة الفلامنكو، ملهمة نيوتن وجاليللو (وعبد الرحمن الشرقاوي كمان!)، وحدها تسمح للقدم بترك أثرها، ولأن لكل إله عادة خطأه التراجيدي، فقد نجحت جيوش الآلهة في اقتفاء آثار أقدامها بسهولة منذ حطت على الأرض، كانت صفاء تتدخل في الوقت المناسب لبتر الحكاية، إن لم يكن رفقا بالميثيولوجيات فرفقا بعلي، خلال شهرين اعترفت لجو بكافة الذكريات التي لا زالت تؤرقها بخصوص تصدع حياتها الزوجية، وتعلمت بالكاد عزف أغنيتين لفيروز مما شجعها على إقامة حفل منزلي صغير بمشاركة جو لم تدع لحضوره سوى ماجدة، التي جاءت تصطحب جي جي ــ شريكتها في اللافتة، والمزاج، وأشياء أخرى ستتضح فيما بعد ــ تم التعارف في جو احتفالي عذب وسط الغناء الحميم والثرثرات والدخان والروم المصري الذي كادت صفاء تتقيأ بمجرد سماع اسمه، والذي اعتذر جو عن إحضاره «دا جزاة اللي يدرّس مزيكا بـ ۱۰۰ ملطوش في الشهر!» على التقاسيم الأندلسية خلعت جي جي ربطة رأسها ثم عقدتها على وسطها عقدتين، أرختها قليلا على أردافها المدورة ببراعة مثّال أعمى، ودخلت في وصلة رقص محموم بالنشوة لا يفسرها الروم وحده، كانت تشيع من حولها طاقة حب غير عادية مع كل ضحكة، وكل اختلاجة في جسمها اللدن، وأحست صفاء للحظات بحرارة اللغة الخفية بين كل عضلة تهتز في جسمها وبين أصابع جو المتحرقة على الوتر، لحظات وحلت الإيشارب عن وسطها لتطوق به عنق صفاء كدعوة للرقص، وأمام خجلها اضطرت ماجدة أن تنوب عنها وتشارك جي جي في رقصة

أفعوانية، ثم بعد الرقص والغناء والبهجة يتسع الصمت، ويختبيء كل منهم وراء كذبته الخاصة، ماجدة ممتنة كثيرا للشاب الذي لم يتعرف عليها وقد مضت سنوات على اليــوم الذي صادته فيه واصطحبته للعيــادة، أو ربما لم تخنــه الذاكرة بقدر ما يتظــاهر بذلك، تحتمي من نظراته بجي جي، وتحتمي بموسيقاه من نظرات جي جي الغيورة المؤطرة بكحل شرس، وتحتمي من الاثنين باللعب مع علي، وجي جي تمسح الندى عن رقبتها وتبتسم كأنها تعتذر عن طاقة الحب التي تفضحها أينما ذهبت، تتشاغل بإعداد سيجارة جديدة وتحدث صفاء عن العروستين التوأم الملتصق كيف دخلتا عليها الأتيليه مساء أمس تطلبان فستان فرح بمقاييس خاصة تناسب الجسم المزدوج، وكيف لم تصدق عينيها، لولا أخذت بنفسها مقاسات الكتاف العريضة والذراعان المتباعدان والأربعة نهود المتجاورة المضيئة كالرمان على عربات الباعة والمحشورة في حيز الصدر الضيق تكاد تنط، والخصر المشترك بينهما كالجريمة والسيقان الأربعة المنتشرة كأرجل الكابوريا، وكيف شتمت في سرها الحشيش المضروب، ثم لعنت الزواج وضحكت مع العروسين وقالت «بناقص.. ما انتوا فيها!»، تعرض عليها أن ترافقها في جولة لشراء ثياب تليق بعازفة جيتار مستجدة، فتدرك ماجدة أن صديقتها إما فطنت لتوترات اللقاء الثاني وانسحبت بوداعة كي لا تقطع عليهما الطريق للذكرى، وإما هي مشغولة ببناء أكاذيب جديدة، كذلك جو يختبيء في الجيتار مرة من براءة صفاء، ومرة من ذكرى صاحبتها العابرة، ومرة من أفخاذ صاحبة صاحبتها الشريرة، تغني صفاء لأول مرة:

شايف البحر شو كبيــر ؟..

سعيدة بمرارة الروم والأصدقاء الجدد والعصافير التي لم تنتبه من قبل لوجودها في الحلق، تحسب أنها تودع بذلك عالما كاملا من الأكاذيب، خلال أيام قادمة ستبدل مظهرها ــ كما شاهدت الكوبرا تفعل ــ بمساعدة جي جي وستعرف أن اسمها جنة، ستضحك ماجدة من رؤيتها تتحرك بخفة في الجينز الضيق كأنما نبت لها أجنحة، وسيذهب الخمسة لزيارة الغورية، ومقاهي الحسين، وهناك يشتري لها جو شالا صعيديا بحواف مذهبة، وتشتري ماجدة طارا من الجلد، تضرب عليه وتدندن مع الجيتارات، فلا تنتبه يدها لكوب العناب ينسكب في حجرها، ثم يغادرون الحسين هربا من حلقات المتسولين والمجاذيب وعيال الأرصفة التي جذبها الغناء، إلى أصحاب الكروب والعاهات وشموع الفقراء في دير سمعان الخراز حيث يقتسم الخمسة قطعة قربان، وتحكي لهم ماجدة قصة الخراز الذي فقأ عينه حين تطلعت لامرأة بنظرة اشتهاء، فيتساءل جو «ما يمكن فقعها عشان ما لحقش يشوف حاجة ؟!» وسيسطو علي على الكاميرا الفوتوغرافية خلسة ليبدد الفيلم على قطعان الخنازير في الحظيرة المقابلة للدير حتى آخر صورة، راصدا مداعباتها المرحة وسط حصار المزابل، وعلى بوابة محكى القلعة سينجحون في تهريب زجاجة بلاك ليبل يشربونها بالتناوب، وبعد الحفل سيقدم جو الطار الخشبي نفسه لفتحي سلامة حتى يوقع على رقعة الجلد كيفما اتفق، ثم يترك كلا منهم على نفس الرقعة كلمة للذكرى، وفي طريق العودة ستلاحظ صفاء والسيارة تعبر بها كوبري أكتوبر من فوق شارع رمسيس تمثال العذراء مريم المنصوب في أعلى طابق بمدرسة القلب المقدس، هذه المرة لن تبتسم كما كانت تفعل عندما ترى العذراء في وضع التجلي تفتح

يديها في وداعة و بشر و تشرع في احتضانها ـــ ومنذ هذه اللحظة تقريبا ستبدو لها العذراء في جميع التماثيل والتصاوير المعلقة وكأنها لا تقف عاليا هكذا بمزاجها، إنما تفرد ذراعيها مثل طفلة تخاف السقوط، وتدمع بيدين مفتوحتين علي العالم، تفتش في العابرين عمن يحملها لتنزل الأرض بسلام ـــ تحسب المسافة بين حزن العذراء وبين تدافع الميكروباصات على أسفلت الشارع، فتعدل رأسها الذي مال على كتف جو بفعل نصيبها من البلاك، وتردد في شجن يشبه الحلم :

شايف السما شو بعيدة ؟..

ـــ ٣ ـــ

«من النادر جدا لمن دخلوا في غيبوبة عميقة لشهور أو سنوات أن يخرجوا منها، وإن حدث فإنهم غالبا ما يصابون بعته مع نوع من الشلل» لم تكذب توقعات الطبيب، فلم تمض ثلاث سنوات حتى وقعت الوفاة، ثلاث سنوات أنفقت خلالها الأسرة نصف مدخراتها على العلاج بلا طائل، وقتها كانت صفاء في الخامسة من عمرها، لم تعد تذكر عن أخيها الراحل أكثر مما تخبرها به الصور العائلية، لماذا عادها الكابوس ؟..

عندما يستسلم علي للنوم ويغرق العالم في الصمت، وحده صوت عقارب الساعة يوحي بالسقوط التدريجي مع كل حركة، فتدرك أن سامح لا يعاني مثلها جحيم الانتظار، ربما نجحت في التخلص من خيالات الفتاة التي خرجت من المذكرات لتؤرق سكينتها، لكن لم تتخلص بعد من شعورها بالحضور الغامض لشبح الغيبوبة الذي يعود ـــ

من حين لآخر ـــ ليلقنها دروسا في الفقد، لماذا يتجاهلها رغم إصراره على لفت انتباهها لوجوده على مسافة قريبة ؟.. طالما أجهدت رأسها في إيجاد معنى لذلك، لماذا عادها الكابوس ؟.. هل يكون الاكتئاب بديلا لغياب الآخرين، أم لغياب الأجوبة التي تجعل من العالم لغزا محيرا أكثر مما هو عليه ؟.. في المسافة الزمنية بين سقوط شقيقها وسقوط سامح عمر طويل، خمس وعشرون سنة لم يختلف خلالها وقع الغياب، الاختلاف الوحيد هو ازدياد وعيها بالألم، هذا ما كان يحاول دكتور نبيل شرحه لها حين قطع حديثهما دخول عم حلمي.

ـــ أنا بافكر حضرتك بميعاد الأراجوز !

ابتسم نبيل بتحفظ، اعتذر عن مقاطعة عم حلمي، وأخبرها أن الليلة عيد ميلاد بنته، وأنها لن تسمح له بدخول البيت مالم تحصل على لعبتها الجديدة، أراجوز صغير معلق على حبل من المطاط، للحظة تذكر طفلها، سأل عن حاله وعن حال القط الفراء الذي أهداه إياه، رجاها أن تحمل إليه السلام وتساعده على اختيار اسم مناسب للقط حتى تعتاده أذنيه!.. على كل فقد اعتادت ألا تأخذ كلامه على محمل الجد، أعاد ترتيب أوراقه على عجل، وحدد لها موعدا لاستكمال الجلسة حتى لا يتأخر على موعد الأراجوز، أي نوع من الأطباء ذلك الرجل؟!..

ليست المرة الأولى التي تضبط فيها نفسها تحدث نفسها، هذا ما يحدث عادة عندما تريد أن «تفضي بذات نفسك» أمام الآخرين على حد قول ديمتري كارامازوف، «وَحشة»، هو عنوان قصة للكاتب الروسي أنطون تشيكوف، تحكي عن الحوذي العجوز «أيونا» الذي مات ابنه ولم يجد بين جميع الركاب العابرين من يستمع لشكواه، فيخلو إلى

فرسه المتعبة في آخر الليل، يحكي لها كل شيء «هكذا يا أختي لم يعد كوزما ايونيتش موجودا.. رحل عنا فجأة.. مات.. لنفرض أن عندك مهرا.. وأنت أم لهذا المهر.. ولنفرض أن هذا المهر رحل فجأة.. أليس مؤسفا؟..» ولم تكن صفاء بأفضل حال من أيونا، عندها دفتر تحتفظ فيه بجميع أرقام تليفونات العائلة، ولديها بدلا من الصديق اثنان، ولديها فوق ذلك طبيبها النفساني، رغم ذلك عندما تحتاج إلى التحدث بصدق ــ ولو لمرة ــ لا تجد حتى فرس أيونا. أحيانا تضيع الشكوى في حضور الآخرين، وأحيانا تفقد معناها في الطريق إليهم، وغالبا لا تجد في فقر اللغة ما يكفي للدلالة عليها.

ــ معظم مواليد برج القوس رومانسيين.. خيالهم يرمح فيه الخيل.. يعملوا م الحبة قبة.. اسأليني أنا..

ــ أول مرة أعرف.

ــ إنهم رومانسيين ؟..

ــ إنك برج القوس.. ما يبانش عليكي..

ــ مش باقول لك رومانسيين.. بيشوفوا بس اللي عايزين يشوفوه.. انتي ما سمعتيش نكتة البنت اللي حبلت عشان واحد قال لها صباح الخير؟!.. دي مش نكتة على فكرة.. دي كانت زبونة عندي في الأتيليه.. اكتشفوا إنها حامل قبل فرحها بيومين.. حاولوا بكل الطرق يعرفوا منها مين اللي نام معاها ودي اللي طالع عليها «ماحدش».. يا بت يهديكي.. يرضيكي.. راسها وألف جزمة «ماحدش».. ما نطقتش غير لما هددوها بالقتل..

ــ هما مين ؟

ــ أهلها.. ما كانوش عايزين منها غير اسم.. قالت لهم «شريف إبراهيم»

ــ شريف إبراهيم مين؟

ــ صاحبتنا قرت في حظك اليوم قدام برج القوس «هذا المساء تعثر على حب حياتك فاحذر أن تضيعه».. خدت الخبر على صدرها والعدد تحت باطها وجري ع المجلة.. وطلبت تقابل الصحفي المسئول عن صفحة الأبراج.. قالوا لها اسألي ع الأستاذ شريف إبراهيم في الدور التاني.. على حظها كان نازل من فوق لحقته في آخر لحظة.. كل اللي كانت عايزاه إنه يفسر لها النبوءة.. قعدوا مع بعض في مكان شيك.. مزيكا هادية.. كلمة منه.. نظرة منها.. انتهى الموضوع في شقته.. وقبل النهار ما يطلع كانوا محققين النبوءة !

ــ بتهزري !

ــ المشكلة إنها كانت أول وآخر مرة تشوفه.. حاولت تسأل عليه بعد كدا في المجلة اتفاجئت براجل قد أبوها مرتين بيسألها عن سبب الزيارة وبيقول إنه شريف إبراهيم..

ــ برضو ؟!..

ــ في الأول ما صدقتش بس كل اللي شغالين في المجلة أكدوا لها إنه فعلا شريف إبراهيم.. ومافيش في المجلة كلها شريف غيره.. حاولت تكلمهم عن الشخص اللي قابلها المرة اللي فاتت. وادّعى إنه شريف إبراهيم ماحدش قدر يتعرف على أوصافه.. وقعت من طولها.. بعد كدا رجعت الشقة اللي باتت معاه فيها.. وطبعا كانت شقة متأجرة وأخينا فص ملح وداب.. ساعتها بس افتكرت أول كلام بينهم على

سلم المجلة.. «أنا باسأل على أستاذ شريف إبراهيم».. «أنا شريف إبراهيم.. تحت أمرك».. ساعتها ما شكتش لحظة إنه ممكن يكون نصاب.. قالت رب صدفة خير من ألف ميعاد سابق.. يمكن كانت لسه واقعة تحت تأثير النبوءة.. الغريب إن أهلها لما سألوها حبلت من مين قالت لهم شريف إبراهيم!.. صحيح كانت عارفة إنه مش هو اللي نام معاها.. بس هو اللي كتب الكلمة اللي غيرت حياتها.. ولو ماكانش كتب كدا ما كانتش حبلت !

منذ أن انضمت جي جي لدروس الموسيقى وعلي ينجذب إليها، امتنع عن تعذيب الجيتارات والدمى وعاد للصمت، بدت هذه البنت تحمل حكايات من نوع آخر، حكايات غريبة عن عالمه الصغير، في البداية لم تفهم صفاء دوافع جي جي التي أحبت الموسيقى من أول نظرة، أدركت أن ثمة علاقة وشيكة بين جي جي وجو، وابتسمت في سرها للتوافق الموسيقي الغريب بين اسميهما، لكن الأيام خالفت توقعاتها، أحيانا ينتهي الدرس وينصرف جو إلى حاله وتظل جي جي بصحبتها حتى مطلع الفجر، وأحيانا أخرى كانت تصل للدرس بعد انصراف جو بوقت طويل، ولأنها لا تشعر بارتياح عادة تجاه الأشياء غير المفهومة ــ أشياء كالمصادفات، والأسرار، وحضور شبح الغيبوبة المراوغ، واللافتة المشتركة بين العيادة والأتيليه ــ لم تعد صفاء قادرة على تكذيب أنفها المحمر أكثر من ذلك، ثمة علاقة واضحة بين ماجدة وجي جي لا تستعصي على الفهم، وربما يعلم نبيل بذلك أيضا، كلتاهما خرجت من قصة حب فاشل ــ الأولى بعقدة وشنيطة، والثانية بحمل غير معترف به ــ كلتاهما خبرت التعامل مع النساء بحكم المهنة، ويبدو أن جي جي

لا تملك نسخة من مفتاح العيادة فحسب، إنما مفاتيحا أخرى لأسرار كثيرة ستنكشف في وقتها، ربما تعرف أيضا لماذا لم تعد ماجدة للظهور منذ فترة، عامة لم تحاول جي جي إخفاء اهتمامها الواضح بكل ما يتعلق بصفاء، الأحلام التي تشاغلها، الأمسيات التي تقضيها مع علي في سرد الحواديت، ألبومات فيروز المنسية في أدراجها منذ أن حل الكومبيوتر محل الكاسيت، المراكب التي لم تعد لرسمها على حواف الدفاتر، القهوة التي أصبحت تشربها سادة، ودروس التاريخ التي تقيمها للبنات فحسب، إلى آخر الأسئلة التي لا تنم إطلاقا عن فضول بريء، ذات ليلة سألتها دون أي مقدمات.

ـ إزاي ممكن تعيشي مع حد انتي عارفة إنه بيحب واحدة غيرك؟..

للحظة أحست بوقع السؤال كسيل من الماء البارد يغمرها بغتة، حاولت أن تستعيد روحها بهدوء، فكرت أنها لم تفقد القدرة على النطق بعد.

ـ أنا ؟!..

ـ ماقصدش انتي بالذات.. أي واحدة.. إزاي ممكن تستمر في علاقة مبنية على كدبة.. خصوصا لو كانت عارفة النتيجة من الأول.. عارفة إنها مهما حاولت تقدم للشخص اللي بتحبه كل شيء جميل بتملكه أو حتى مابتملكوش.. مهما حاولت تكون أقرب منه لنفسه.. هتفضل حاسّة من وقت للتاني بوجود واحدة تانية بينه وبينها.. حتى لو كانت ذكرى.. بذمتك مش دا الجحيم بعينه ؟..

خمنت أنها دعوة صريحة للدخول في علاقة مغايرة، لو لم يخامرها

إحساس واهن بالشك ــ ماذا لو لم تتجاوز أسئلة جنة الفضول البريء فعلا، ماذا لو كانت هواجسها تصوّر لها كل هذا، أو أن هزائم الآخرين تدفعها لأن تتحسس رأسها فحسب ــ فتجيب على جي جي وعلى نفسها في آن واحد.

ــ فريد الأطرش بيقول «الحب من غير أمل أسمى معاني الغرام».

ــ تفتكري الشاعر اللي كتب الكلام دا كان عبيط.. ولا كان هوموسيكشوال ؟!

كلمة أخرى وقد تفقد أعصابها تماما، قد تنفجر في الغضب أو البكاء، أو الاثنين معا، بين رغبتها في طرد جي جي وحاجتها للبكاء على صدرها، لكن جي جي لم تزد، استحالت ضحكتها الكروانية إلى تنهيدة عميقة، تلاها صمت طويل استمر حتى تسللت دمعة على خدها.

ــ ماجدة بتحبك !

قالتها وانصرفت بلا رجعة.

الكتابة هي ..

الملجأ الأخير المتوفر عندما نكون قد خنا!..

عزيزي أرمسترونج..

عندما رفع الفلاح خونانوب شكواه الثالثة إلى الحاكم رنزي بن ميرو تعمد أن يكتبها بنبرة أكثر حدة من سابقاتها، مدفوعا بالغضب من تجاهل الحاكم لمعاناته، ومحذرا إياه في نهاية الشكوى من عاقبة الظلم ودنو الآخرة، فما كان من حاكم الإقليم أن بعث بالشكوى إلى الفرعون على أمل أن يستجيب هذه المرة أو يخرج من سباته، فيرد عن المملكة اتهامات خونانوب على الأقل. إلا أن رد الفرعون كان قاطعا «لا تجب خونانوب شكواه». وبعد ست شكاوي أخرى، [وحوالي ١٢ محاولة انتحار بالقفز من فوق الهرم] وأخيرا تهديد صريح بالذهاب إلى الفرعون شخصيا وزي ما تيجي...، استجاب الفرعون لخونانوب وأخبره أنه لم يهمل شكواه ولا حاجة، إنما كان يستمتع بحسن بيانه وسحر أسلوبه في كل شكوى، ولذلك أمر الفرعون بكتابة الشكاوى التسع فى البرديات لتبقى على مر السنين. الاختلاف الوحيد بيني وبين خونانوب أنه كان يعرف شكواه.

ليست المرة الأولى التي أحاول فيها الكتابة إليك، قد تكون التاسعة، التاسعة بعد الألف، قد تكون الأخيرة، وبمجرد أن أنتهي منها ستموت في أدراجي مع كل المحاولات السابقة، لا تظن أنني أفتقر إلى الشجاعة، لكني لم أجد جدوى من إرسالها، أعترف أن كتابة الرسائل كانت محاولة من خونانوب لتطوير مهاراته الأدبية فحسب.

فيرونيكا

ـ ١ ـ

لم يكتفِ دكتور نبيل بالمهرج الراقص على الحبل، اشترى حديقة حيوان كاملة من البلاستيك، وبعض الدمى على شكل «طرزان» و«سمبا» و«أودي» و«مولان» وغيرها من شخوص والت ديزني، وأقنعة متعددة لزورو، ودراكولا، وسبيدر مان، وتقليدا لعصا هاري بوتر السحرية تصدر أضواء وموسيقى، ورشاشات مياه، وزلاجات ضخمة، وعربات يوحدة تحكم، وكتيبة عسكرية بملحقاتها من دبابات ومدافع وعربات مصفحة في حجم علب الكبريت، ونسخة مزيفة من مصباح علاء الدين، وعرائس بيضاء تبكي وتضحك وتغني، وصواريخا ملونة، وبالونات غازية، وكائنات من الفرو أكثر ضخامة كانت أطرافها تطل من شباك سيارته الصغيرة في طريق العودة، دلف للعيادة يحمل جوال اللعب مثل سانتا كلوز، أخذ حماما سريعا وتناول لقمة قبل أن يذهب للفراش على عجل. أفرغ الجوال وبدأ في اختبار اللعب بحماس طفولي حتى أنه لم ينتبه لجسده المندى الذي يقطر منه الماء، حريصا على اكتشاف كل لعبة قبل أن تفقد زهوها، للعب الجديدة بأنواعها رائحة مبهجة لا تخطئها أنفه، غلبه التعب فاستسلم للنوم وسط حلقة الدمى، شعر بالبرودة تتسلل إليه من الفراش المبلل فتشيع في جسده ارتياحا

غريبا، وعندما أعلن الببغاء الآلي المعلق على الحائط الساعة العاشرة مساء كان قد أسلم الروح.

. . .

عادت صفاء للعيادة في الموعد المتفق عليه، وكأنها تشرع في إعداد رواية عن فيرونيكا ـــ التي قررت أن تحيا هذه المرة ـــ فكرت متى بدأت هزائمها ؟.. حين أخفقت في قراءة مشاعر سامح ؟.. أم حين أخفقت في قراءة مشاعر ماجدة ؟.. الأرجح أن الهزيمة سابقة على كل ذلك، عمرها من عمر العصفور، برق خاطف من شتاء طفولتها يذكرها بالليالي البعيدة حين كانت أمها تتشمم ضفائرها وتبكي، خمنت أن لأمها ألف سبب وسبب للبكاء، مع ذلك كانت تنفرد بنفسها أحيانا لتفتش في ضفائرها عن حزن ما، ربما كان سرا بينها وبين الأم لم تجهد نفسها في تفسيره، لذا لم يكن سامح يبكي عندما يدفن وجهه في شعرها بالساعات، مزيد من الأسئلة تعرف أنها لن تجد لدى نبيل جوابا لها، لم تفكر في ذلك قبل أن تجد نفسها بالفعل أمام باب العيادة المغلق واللوحة المعلقة إلى جواره «انتقل إلى الأمجاد السماوية الدكتور نبيل ألفونس»، شعرت لأول مرة أنها أحبت شيئا ما في ذلك الرجل،لكن ثمة رائحة طبيخ ماكرة تتسلل من شراعة الباب لتفسد اللحظة، طرقت الباب وانتظرت حتى ظهر عم حلمي في جلباب منزلي، يحمل سكينا و على وجهه آثار دموع، تبينت حين دعاها للدخول أنها من فعل البصل، لقد رحل دكتور نبيل تاركا ممتلكاته لعم حلمي، شريكه الوحيد في العيادة والمنزل والجلبهار، لم يكن للمرحوم أقارب أو أصدقاء من أي نوع، حتى طفلته الوهمية لم تكن سوى ذريعة لشغفه المرضي بشراء اللعب،

تذكرت صفاء صورته مع الطفلة في حجرة الكشف، أخبرها عم حلمي أن الصورة معلقة على هذا الجدار منذ عشرين عاما أو أكثر، عشرون عاما لم تكبر الطفلة أو تكف عن الهوس باللعب. ربما لم يقرر نبيل الرحيل قبل أن يكشف لها عن كذبته، يقترح عليها الخادم العجوز أسماء أطباء آخرين يمكنها اللجوء إليهم،فتبتسم لأنها لا زالت قادرة على الدهشة.

...

لم ترغب في زيارة سامح، اكتفت بكلمات الطبيب المقتضبة عن بقاء الحال على ما هو عليه، مضيفا أن عمق الغيبوبة ليس مؤشرا لضعف احتمال الشفاء، ومؤكدا أن بعض المرضى الذاهبين في غيبوبة عميقة يتعافون بشكل أفضل من أولئك الراقدين في مستويات متوسطة منها. لم تحاول السؤال عن ماجدة، تعرف أن عودتها قد تزيد الأمر سوءا، كذبت ماجدة على نفسها سنينا قبل أن تكذب عليها، ربما آثرت إخفاء مشاعرها خوفا من فقدان صديقتها الوحيدة للأبد، ربما كان الرفض هذه المرة سيخلف جرحا عميقا، أكثر مرارة وقسوة من نظرات تلاميذ التوفيقية الثانوية، ولكن هل حاولت ماجدة إخفاء مشاعرها تجاه صفاء حقا، ألم تعلمها آداب الأنوثة حرفا فحرف، ألم تساعدها على تحقيق حلمها الوحيد الذي كان «علي»، ألم توزع روحها على الصبية والعقائم لسنين حتى تنسحب من حياتها في هدوء، غالبا لم تكن ماجدة في حاجة لأن تتخذ من صفاء مبررا لمازوشيتها، ستعود ماجدة ذات يوم، عندما تقرر التوقف عن خداع نفسها ــ مرّة ــ بحبها لصفاء نكاية في الرجال الذين أصابهم العمى، و ــ مرّة ــ بحبها لجنّة عوضا عن صفاء التي لم تفطن لطبيعة مشاعرها، و ــ مرّة ــ باصطياد المراهقين براءة من مثليّتها

المزعومة، ستعود ماجدة ذات يوم. أما صفاء فقد قررت الآن، والآن فقط أن تبحث عن سامح، أدركت أخيرا أنها لن تعثر عليه في ذلك الجسد الراقد في هدأة الغياب، إنما في حياته الأخرى التي جاهد لإخفائها طيلة السنوات الماضية، وتحديدا منذ قرر أن يكون طيفها العاشق، عله لم ينشد الغياب دون أن يترك لها رسالة ضمنية على طريقة نبيل، استطاع جو أن يمدها بقدر ضئيل من مكتبة سامح، بعض ذكريات عزوبيته التي تخلص منها أثناء إعدادات الزواج فتركها في بهو العمارة دونما يعرف أن طفلا شقيا يهوى سرقة الكتب سيحفظها إلى حين، حتى أعداد البلاي بوي القديمة لم يصبها التلف، أما كتاباته فلم يبق منها إلا ثلاث وريقات لم يشأ أن يحرقها لسبب غير معلوم، تركها كرسالة مبتورة إلى قارئ مجهول قد يجدها يوما، كان بإمكانه إعدامها تماما كما كان بإمكانه إعدام المذكرات، فلماذا لم يفعل ؟.. لماذا ترك بصيصا من النور يشير إلى حياته الماضية ؟.. هناك احتمالات ثلاث وراء ذلك، إما أن شيء من الحنين حال بينه وبين إعدامها، وإما أنه تركها سهوا مما يعني أنها لم تعد تمثل له شيئا ذا أهمية، وإما أنها حيلة روائية قرر أن يختبر بها مشاعر زوجته كنوع من المزاح الثقيل، منذ أن بدأت تفكر على هذا النحو لم يعد سامح شبحها الغارق في الغياب، إنما شبحا شقيا غير قانع بموته وسكونه، يعود ليؤرق منامها في كل ليلة باعثا صدى ضحكاته يضيء الكوابيس، راقها الاحتمال الأخير رغم قسوته، فكرت أن كل ابن آدم هو كاتب بطريقة ما، وكل كاتب يحمل في داخله نقيض دائم هو شبحه الخاص، شيطانه الصغير الذي يتحين الفرصة ليتخذ مكانه مهما طالت غفوته، هي ذات أخرى بالقطع تعمدت أن تترك خيط الضوء

الذي سيقود صفاء لاكتشافها ـــ منتهزة فرصة انشغال سامح لحظة تورطه في الحنين أو السهو، وهي ذات شريرة غالبا، لم تنهض من رقادها كي تفسد حياة صفاء، إنما لتمارس على سامح انتقاما غامضا بعد طول انتظار، فكرت لماذا يقرر أحد التخلص من كتبه في لحظة ما؟..
حاولت أن تستلهم الجواب من عناوين الكتب فلم تتوصل لشيء، روايات عديدة سهرت على قرائتها منتهزة فترات خلود علي للنوم، بين ليلة وأخرى كانت تتوقف للراحة في واحدة من مقاهي محفوظ الفالتة من الزمن، لتعاود الترحال في صحراء الكوني الكبرى، وسرب من الشموس الحارقة يلاحقها من الجهات الخمس، فتلوذ بقارب صغير إلى إسكندرية إبراهيم عبد المجيد حيث تنتظرها ألف جنية بحر، تعرف أنها لن تسلم من غواية المدينة المسحورة ما لم تترك قاربها للموج يحمله بعيدا، بعيدا، ربما يستقر على شواطيء طنجة، وهناك ستمنح نفسها لأول عابر سبيل قد يهديها سوارا من العاج ويصحبها لاكتشاف أوكار الليل، وقبل طلوع النهار سيكون قد باعها لأحدهم لقاء وجبة عشاء، وستدرك أن السوار المسروق ربما يعود إلى قارئة روايات سابقة ساءها القدر، فتودع عالم محمد شكري بما تبقى من عريها على هدى الريح التي تقودها مجددا لعطور باتريك زوسكيند، غير آسفة على عمرها الذي قد يستحيل رحيقا عابرا في سماء العالم، قربانا خالصا للجمال، مثل فراشة صفراء أطلقها ماركيز من فمه لتحلق في سماء ماكوندو ـــ دليلا على حضور العاشق بابيلونا «محبوب الفراشات» في حمّام معشوقته ميمي كل مساء ـــ قبل أن تجذبها فتنة الضوء لتنتهي في جحيم كزانتزاكيس المستعر.

خلال طوافها تنبهت للمسافة الفاصلة بين دوائر الحكي التي أوشكت على ابتلاعها، وبين سؤالها المعلق منذ نقطة البداية، متى يقرر أحدهم التخلص من كتبه ولماذا ؟!.. لماذا ؟!.. فتشت في الكتب عن لعنة خفية أو سر يستدعي الكتمان، فلم تجد إلا مئات المرايا السحرية التي تعكس صورها عبر تلك العوالم والذوات، كلما اتخذت طريقا للبحث عن سامح قادها الطريق لنفسها مجددا، وأحست لأول مرة أنها تتعثر في خيوط مؤامرة كونية جعلتها تتساءل ما إذا كانت ستفضي بها لمصير سانتياجو الحي أم سانتياجو المقتول.

عادة ما تنتقي الكتب قراءها وإن ظنوا أنهم منتقوها، إنما وقع اختيارها عليهم من زمان بعيد، سواء كانت في انتظارهم على رفوف العرض لسنين، أو سقطت بين أيديهم دون سابق إنذار، وفي الحالتين تظل علاقة القاريء بالكتاب خاضعة لعوامل الزمن كغيرها من علاقات الحب، أحيانا ما تجيء قبل أو بعد الأوان، ثمة كتب قادرة على الانتقال بالقاريء من عذابات النفس إلى نور الحقيقة، من قمة الثورة إلى قاع العدم، من أحلام الصبا لحبائل الواقع، ومن سطوة الواقع لغابات الأساطير، خلال سنوات خدمتها عرفت أميمة مختلف أنواع القراء، ومع أن القراءة لم تكن يوما ضمن اهتماماتها ــ اللهم إلا عناوين الصحف اليومية وإعلانات التسوق مع شاي الصباح، ومرور الكرام على ما تخبئه لها الأبراج ودمتم ــ إلا أنها استطاعت بمرور السنين استنباط محتوى الكتب من وجوه قرائها، مر عليها قراء على كل شكل ولون، بعضهم ينقطع عن زيارة المكتبة بعد زيارة واحدة، والبعض يعاود الظهور بعد سنين، وآخرين يمكنها أن تضبط عليهم الساعة، حتى من يقصدون

المكتبة لقضاء ساعات النهار المملة، والباحثين عن ملجأ آمن للهرب من المدرسة، أو فرصة للتعارف بأصدقاء جدد، «قراءاتهم على وجوههم» كما علمتها الأيام، لكن يظل النوع الأكثر إثارة من رواد المكتبة هم فصيلة نادرة ومريبة نوعا ما، يقصدون المكتبة على فترات متباعدة ويطالعون نفس الكتب عشرات المرات كطقس محبب إلى نفوسهم!

ــ بس مافيش لحد النهاردة كتاب يقدر يغير في الواحد اللي ماقدرتش تغيره السنين

ــ لكن ع الأقل يقدر يحرك تراكم السنين خطوة لقدام أو لورا.. ما أنا كنت لسه جاية لك في الكلام.. تصدقي يايه من قيمة خمس ست سنين كدا كان بيجي لي شاب ابن ناس جدا.. يدخل المكتبة في حالُه ويخرج في حالُه ويقعد بالساعات مايشيلش عينه من عَ الكتاب.. كنت أقول يا سلام لو الواد يوسف ربنا يهدي سره وأشوفه عاقل كدا.. كان اسمه فادي ما بانساهوش أبدا.. أبدا.. التي سُكّرِك إيه ؟

ــ مظبوط

ــ المهم يا ستي في مرة كان قاعد يقرا في حاله.. والمكتبة مافيهاش بتاع تلاتة أربعة على بعض.. وترمي الإبرة تسمعي صوتها.. وألاقي لك دا مرة واحدة راح قافل الكتاب وقايم من سكات.. فتح الشباك ونط منه !!

ــ نهار أسود!

ــ وحياة ابني زي ما باكلمك كدا.. إلا ما فيه حد في المكتبة كلها حس بحاجة.. في ثواني كان رامي نفسه م الشباك.. ربنا يصبر أهله.. عمري ما أنساه أبدا..

ــ وبعدين ؟!

ــ بعدين إسعاف وتحقيق وموال.. مع إنك مش هتصدقي إنه كان من اخواننا بتوع الكتاب الواحد.. يغيب يغيب وييجي يقعد في نفس الركن يقرا في نفس الكتاب.. تقولي لي إيشمعنى المرة دي الهف في نافوخه وعمل كدا.. علمي علمك..

ــ هو كان كتاب إيه ؟!

ــ أفتكر إنه كان كتاب في الفلسفة...بس مش دا المهم.. بدليل إنها ماكانتش أول مرة يقراه.. ولا كان أول واحد يقراه.. كل الحكاية إن الواحد رؤيته للحاجات بتتغير مع الوقت.. ويمكن يكون اكتشف في الكتاب حاجة جديدة ماشافهاش في كل المرات اللي فاتت..

ــ وليه ما تقوليش إنه مالقاش في الكتاب حاجة جديدة ؟.. أحيانا بيكون عدم التغيير هو الدافع الحقيقي للانتحار مش التغيير.. بس الواحد لو زهق من كتاب هيدوّر على كتاب غيره.. أوديب لما شاف الحقيقة فقع عينيه.. لكن ما انتحرش..

ــ أوديب مين ؟!..

ــ أنا قصدي ليه ماتقوليش إن الرغبة في الانتحار كانت موجودة جواه من زمان ؟..

ــ سواء كانت موجودة جواه أو موجودة في الكتاب.. هيفضل الكتاب في الحالتين طرف من أطراف الصراع.. ومش بعيد في كل مرة كان بيعيد قرايته كان بيحاول يؤجل قراره مش أكترا..

حاولت أن ترسم في خيالها صورة للشاب المنتحر، رجحت أن يكون

أحد مواليد برج القوس الطفوليين الذين حدثتها عنهم جنة، وأن كتابه يتعلق بالتاريخ دون شك حتى وإن اتخذ طابعا فلسفيا، فهؤلاء الصغار الحالمين بتغيير التاريخ غالبا ما يكونوا على موعد مع انتحارهم منذ أن يبصروا النور. منذ أيام عثرت في الجريدة على صورة لشاب آخر فجّر نفسه في أوتوبيس سياحي يحمل فوجا أجنبيا، ترى أي كتاب قد دفعه لذلك، عندما دققت النظر في الصورة شاهدت موت الشاب مقدرا في عينيه، وبغض النظر عن مواليد القوس فقد أيقنت أن البشر ـــ بصفة عامة ـــ حيوانات ذات خيال، يمكنها أن تحب، أو تكره، أو تحبل، أو تموت بكلمة!

أدركت من حديث أميمة أن كتابا قد يدفع قارئه للانتحار يمكنه أن يمنح قارئا آخر أسبابا للعيش، كما أن تمثالا مقاما على ارتفاع ما لمريم العذراء يمكنه أن يبعث على الرعب، بينما يوحي بالطمأنينة من وجهة نظر أخرى، هو في النهاية قطعة حجر قابلة للتأويل، والتأويلات في هذه الحالة قد تكون بعدد نفوس البشر، فما بالك وتلك النفوس خاضعة لتقلبات الزمن والتجارب، لذلك كانت الكتب تقودها إلى نفسها فى كل مرة. الآن لم تعد الكتب تشغلها بقدر ما تشغلها الكتابة، أعادت النظر في وريقات سامح مرارا ولم تتوصل لشيء، تبدو مقدمة غامضة لرواية لم تكتمل، أو مرثية لكاتب آخر لم يذكر سامح عنه أي معلومات محددة. عاد السؤال الذي يدور برأسها منذ أن فتحت صندوق الذكريات، ماذا لو أنها نسجت كل هذه الملابسات من وحي خيالها ؟!.. ماذا لو أن الأمر في الواقع لا يستحق هذا العناء ؟!.. لماذا ترفض التسليم بما كان على أنه مجرد ذكرى حب عابر سقطت بالتقادم

حتى أن سامح نفسه قد لا يذكرها ؟!.. بالطبع كانت ستفعل لو انتهى الأمر عند هذا الحد، لو لم تلتقي بأميمة، وماجدة، وجنة، ونبيل، وتعرف ما يضمرونه من أكاذيب بيضاء، كانت ستكتفي بما تعرفه عن سامح، أو ما تبقّى منه لولا شبح الغياب الذي حال بينهما، لتحمل وحدها عبء الكوابيس والأسئلة التي تنمو في فراشها ليلة بعد ليلة عن سامح الذي كان زوجا في الماضي القريب، ولغزا في الماضي البعيد، وشبحا مقيما في الحاضر. أما الاحتمال الثاني فلم يكن أفضل بأي حال، وهو احتمال وجود المزيد من الاكتشافات القابعة في انتظارها على بعد خطوات كالشراك. في البدء كان الخوف من أي موجة قد تهدد أمان عالمها الصغير، واليوم صار رفيقها في كل خطوة تخطوها خارج نطاق العالم القديم، مثل قوة غامضة لا تفنى ولا تستحدث من عدم يستطيع الخوف إعادة إنتاج نفسه متخذا في كل مرة المبررات اللازمة للبقاء، ولأنها لم تكره طوال حياتها شيئا كما تكره الألغاز، قررت أن تتجاهل الأمر برمته، وتستسلمُ للنوم على صوت التليفزيون الذي تركه علي يبث فيلما عن فأر صغير يحاكم بتهمة الخروج عن القانون، فشلت مساعي أسرته ومعلميه في تدريبه على الاستجابة السليمة لبعض المثيرات المخيفة كالقطط والسكاكين والمصائد والبشر إلى آخر الأشياء التي كان دسبرو – الفأر الشجاع – يراها أشياء جذابة لا تستدعي هذا الميراث الهائل من الرعب «دسبرو؛ لن تكون فأرا إذا لم تتعلم كيف تخاف!..»

فكرت صفاء في عالم كامل من الدسبرويين الصغار، فكرت في آلاف الاكتشافات التي قد تنتظرهم غير الموت بين أسنان قط عجوز، بدا الموت احتمالا واهنا مقارنة بالاكتشافات الهائلة التي لن يمنعهم الخوف

من الوصول إليها، وتذكرت قرود «الهابيليس» الإفريقية التي سبقتها إلى تلك الحكمة منذ ملايين السنين، فاستطاعت كمخلوقات فضولية أن تنبش عن جذور الإنسانية الأولى في قمامة السافانا، بينما كان كل حيوان يعرف أين يجد غذائه المناسب، اضطر الهابيليس وحده للتنقيب عن غذائه في أي مكان حتى في مخلفات الآخرين، وقد منحه هذا الفضول الفرصة لاكتشاف غذاءه السري في نخاع العظام، ثم ابتكار الأدوات الحجرية التي تمكنه من الوصول إليه دون أي حيوان آخر، وإيجاد طرق مختلفة للعيش تؤهله للبقاء في عالم دائم التغير. اتخذ الهابيليس الخطوة الأولى في التحرر من قواعد حكمت أشكال الحياة على كوكب الأرض لملايين السنين، قبل أن يسافر في التاريخ حتى تعيد صفاء اكتشافه بين ركام الكتب المعروضة على رصيف محطة المنيا بعشرة قروش، ليلقى مصيره التعس على يد أبلة عنايات وهي تعض على سندوتش المربى بإمعان وتقسم أن داروين كافر وابن ستين قرد، فيميل عليها أستاذ أسامة هامسا أن داروين لو كان شاف قردة في حلاوتها لعدل عن رأيه، فتطلق ضحكة تهتز لها كل مرتفعاتها الطرية وحوائط المدرسة، بينما تلملم صفاء أشلاء الكتاب من الأرض. وفي غضون شهور قليلة ستتزوج أبلة عنايات من أستاذ أسامة مدرس الحساب، وستمتنع تماما عن الضحك والمربى لتختفي خلف نقاب فضفاض سيزيد من هول التضاريس، وستعلم صفاء بعد سنوات برحيل الأستاذ أسامة المبكر متأثرا بسرطان العظم، فتدرك بينها وبين نفسها أنها لعنة الهابيليس نبّاش العظام، وبعد سنوات أخرى ستترحم صفاء على الهابيليس، وعلى أستاذ أسامة، وعلى ضحكة أبلة عنايات الشهيرة أثناء مشاهدتها فيلما

خياليا عن فأر صغير يتلقى دروسا في الخوف «دسبرو؛ لا أحد يولد خائفا.. هناك العديد من الأشياء الرائعة بالحياة تكون مخيفة فقط إذا تعلمت كيف تخاف منها..» أرسلت شمس الصيف خيوطها الأولى، حتى أفلام الكرتون لم تعد تساعد على النوم.

ـ ٢ ـ

«جماعة محبي بيت الياسمين»

سامح عبد العليم

أنت الآن في مواجهتـي تماما، الغرفة مظلمة إلا من ضوء الشمعة التي أشعلتها لتوك، خلت الإسكندرية من حولك وتلاشى العالم لحظة انقطاع التيار، وربما إن كنت غريباً عن المدينة ستضاعف الغربة من وقع الظلام المفاجئ، لذا تركت لك شمعة صغيرة على ذلك الرف المهمل أعلى النافذة، خمنت أن أول ما ستفعله هو أن تفتح النافذة ـ ربما لتتأكد من وجود الضوء خلف نوافذ أخرى لبيوت لم تنقطع عنها الكهرباء، خوفا من أن يكون الظلام الأخير، ربما لتجديد هواء الغرفة بعد تعطل المروحة ـ ومن خلال النافذة سيجعلك هواء الإسكندرية الصحو تشرد للحظات قبل أن تحاول البحث عن شمعة، هي الآن في متناول يدك، أعلى واجهة الأرابيسك الباقية من مشربية مهدمة، قد يتطلب الأمر أن تشب قليلا على أطراف قدميك، وللحظات ستسري النشوة في جسدك مع الهواء المناسب، وقد تتخيل ارتفاعك عن الأرض تماما، محلقا في الفراغ يساعدك الهواء البارد والظلمة والسكون ـ الذي

حل بانقطاع أزيز المروحة ــ على التخيل، تتحسس يدك الرف الذي لم تنتبه لوجوده من قبل حتى تصطدم بزجاجة مركونة، لا تأمل في سهرة مغلفة بالنبيذ، تمهل وتحسس جسم الزجاجة لأعلاها ستجد في فوهتها شمعة صغيرة تحجّر زيتها، جوارها ستقع يدك على كتاب صغير مترب لن يدعك الفضول قبل أن تطالعه، وستفتش عن ثقابك في أسرع وقت لا لتبدد ظلام الحجرة، إنما لتكتشف ما تركته لك بين دفتـــي الكتاب، هذا ما تفعله عادة الأشياء الصغيرة المفعمة بالأسرار حين تداهمنا فجأة في الليل، ماذا إذن ؟ــ إنها رواية، مجرد رواية مكتوب على غلافها «بيت الياسمين»، أنصحك أن تتغلب بها على ليل وحدتك، على الأقل ستساعدك على النوم قبل أن يذوب ما تبقى من الشمعة. لم تكن صدفة أن أحداث الرواية التي تركتها بين يديك تدور حول بيت قديم محاط بحديقة لأشجار الياسمين يقع في شارع هادئ قريب من البحر، وتحديدا حيث تطل النافذة التـــي فتحتها بيديك منذ دقائق.

مهلا ، قبل وصولك بعدة (أيام / شهور/ سنوات / كل ماسبق) كنت أتمدد هنا، مكانك بالضبط على نفس الفراش النحاسي، وأطالع نفس الكتاب، كنت خارجا لتوي من قصة غرام فاشل جمعتنـــي ببنت جميلة ظهرت في حياتي المملة بشكل مفاجئ واختفت بنفس الطريقة، لم تدع لي أسبابا للرحيل، أو شفرة تساعدني على اقتفاء أثرها، لا تذكارات، لا عناوين، لا شئ سوى عينان زرقاوان تلاحقاني كل ليلة حتى مطلع الفجر، رغم اللقاءات المعدودة التي جمعتنـــي بها في أماكن عامة، كان نسيانها يتطلب أكثر من مجرد الرحيل وإجازة مفتوحة من العمل، وهو ما يفشي الرغبة بداخلي في تغيير حياتي الذي ظل حلما مؤجلا، فكرت

في صديق قديم يقيم في الإسكندرية، لماذا الإسكندرية تحديدا، ربما لأنها الأقرب (من حيث الموقع الجغرافي، والعاطفي أيضا، يربطني بها حنين لصيف طفولتي وصباي) وفي ليلة وصولي عرفت أن صديقي تركها منذ سنين إلى بلاد الخليج، كانت العودة للقاهرة مشروطة بذكرى فتاتي المؤلمة وعينيها المفتوحتين ليلا ونهارا على عذابي، وكنت قد صادفت بائع جرائد عجوز قادني إلى تلك الحجرة التي تسكنها أنت الآن، بالإضافة لبيع الصحف والسجائر والكولا عرفت أن العجوز يمارس أعمال السمسرة وتجارة المخدرات، فمه مهجور إلا من ضروس قليلة مترامية في ظلمة الحلق تعينه على مضغ الأفيون، للحظة الأولى لم تروقني الحجرة التي ذكرتني بحلق العجوز، لكني كنت متعبا لدرجة لا تسمح لي بالبحث عن سكن بديل، لم أكن بعد قد قرأت الرواية ولا وقعت عيناي على حديقة الياسمين المقابلة لنافذ (تي/ تك) حتى انقطع التيار الكهربي لأول مرة منذ وصولي، لأجدني أغرق في ذكرى العيون الزرق مجددا، تداهمني الذكرى فأبحث عن مفر، عن أنيس، عن شمعة تركها أحدهم في مكان ما.

بعد أن فرغت من قراءة الرواية سرحت في تخيلاتي حول بيت الياسمين وما لم يذكره الكاتب عنه، من المؤكد ينطوي هذا البيت الصامت على أسرار وحكايات أخرى سوى حكاية صاحب البيت الذي لا ينجب إلا البنات، على سبيل المثال هناك شروخ ممتدة في الجدران لسنوات، وسلالم رخامية تفضي بالصاعد إلى بهو واسع من الباركيه مفروش بالأصفر، حيثما ترسل الأشجار وارقها من نوافذ أيلول، شمعدانات قديمة، نجف فخيم يعود لأيام الملك، ولوحات كانافا تصور

جلسات السمر على حافة النهر، ومراعي الغزلان، والقوارب الراحلة في الغروب، وطفلة شامية تحمل عنقود عنب. بالطبع لم يكن الكاتب مشغولا بتلك التفاصيل، ما كان يعنيه هو العزلة التي فرضها صاحب البيت على أسرته ورحيل بناته مع أزواجهن واحدة تلو الأخرى بشكل دوري يعكس واقعا اجتماعيا مع إضفاء مسحة سحرية على المشهد بقطيع عابر من الخراف البيضاء جميعها بثلاثة سيقان بما يتناسب مع أجواء الرواية، من المؤكد هناك تذكارات لم يتوقف أمامها الكاتب، هناك مائدة طعام مستطيلة من طراز إيطالي تشبه مائدة العشاء الأخير في اللوحات حيث وزع المسيح جسده ودمه على تلاميذه الإثنى عشر، ساعات حائط معطلة، وألبوم ضخم للصور العائلية. بعد أيام راودني حلم عجيب، رأيتني أتسلل إلى بيت الياسمين محملا بشعور أخاذ مبعثه الاكتشاف الذي أنا مقدم عليه، ربما وجدت في الخيال علاجا لذكرياتي التي خلفتها في القاهرة، تلفتُّ حولي في الشارع الخالي إلا من شاب عابر يغنـــي عن بعد بصوت خفيت يذوب في الليل، وشحاذة تفترش الرصيف تنهال بالسباب على شخص غير مرئي لازال عالقا بذاكرتها الفاسدة، وضوء أحمر خافت مصدره محل الهدايا الصغير المطل على البحر، لأواجه الكورنيش مباشرة والبحر العريض الواعد بالسحر والجنيات المضيئة، ويرف منديلا معلقا حول عنقي مع النسيم البارد فترد عليه وريقة ملونة لازالت معلقة على خيط متدلي، صامدة، من زينة رمضان الماضي، ترتعش في الهواء. وقبل أن أستسلم لغواية البحر وألقي فيه بجسدي المتعب، أستدير بحذر وأنعطف إلى البيت الحزين المسوّر بشجر الياسمين، وبقفزة واحدة أعادتنـــي لأيام المغامرة والهروب

المبكر من المدرسة أعبر سور الحديقة فيشملنـــي عطر الياسمين وأستسلم لوجوده المحلق منساقا وراء المغامرة وقد أعماني اكتشافي غير المسبوق الذي ينتظرني خلف الباب الموصد (أنت تعرف الحرارة التي تسري بأوصالك وأنت على أعتاب سر ما، فأنت مثلا منذ بدأت في قراءة رسالتـــي المودعة في الكتاب وأنت غائب تماما عما حولك وإيقاع قلبك في تسارع مستمر) بدفعة من كتفي انصاع الباب القديم بتواضع، ربما ليوهمنـــي أنه لا ينطوي على سر ذي قيمة، مجرد بيت عجوز من الحجر الأصفر، غير أنه لم يعد أمامي سبيلا للتراجع. قرأت في إحدي الروايات أن الأحجار الثمينة لا تبوح ببريقها للعين ولا تكشف عن مكنونها الأصلي، وهو ما يميزها عن الأحجار اللامعة البخسة، وأعتقد أن الأمر قد ينطبق على الأسرار أيضا. تجاوزت البهو المظلم بخطوات حذرة وفضاء البيت الفسيح يردد وقع حذائي على الباركيه، لا أعلم من أين يأتي هذا الهواء ليطيح بمخطوطات مبعثرة من حولي في كل ناحية، أو أنها سوناتا خفية ـــ للورق وحده ـــ رفضت أن ترحل عن البيت من زمن بعيد، المكان مهجور وشاحب ومسكون بالموت، تنقصه مدفأة قرمدية كي يصلح موقعا لتصوير فيلم رعب أمريكي، رغم ذلك فقد أحسست بوجود عطر غامض لا يشبه الياسمين، ربما رائحة شخص يقبع في مكان ما من البيت، ربما شخص خبيث نجح في الإيقاع بي ـــ لم أكن أعلم حتى هذه اللحظة أنني أسير في الحلم، أو إن شئت الدقة «أسير الحلم» ـــ تقدمت أكثر على هدى العطر، في يدي الكتاب مفتوح على صفحة (٤٤)، وفي الأخرى الشمعة التي استعنت بها قبلك، الحنيت بدافع الفضول ألتقط مخطوطة من رقصتها الحالية، لأقرأ فيها

((... يستدير بحذر وينعطف إلى البيت الحزين المسوّر بشجر الياسمين، وبقفزة واحدة أعادته لأيام المغامرة والهروب المبكر من المدرسة يعبر سور الحديقة فتشمله رائحة الياسمين، منساقا وراء المغامرة وقد أعماه اكتشافه...)) أتلفت باحثا بين شقوق الحوائط عن عين تراقبني، تتوتر أنفاسي، فأتقدم لألحق بورقة أخرى ((... غير أنه لم يعد أمامه سبيلا للتراجع، كان قد قرأ في إحدي الروايات أن الأحجار الثمينة لا تبوح ببريقها للعين ولا تكشف عن مكنونها الأصلي، وهو ما يميزها عن...)) أتفصد عرقا، لا أنتبه إلى لدغات زيت الشمعة وأنا أطالع ورقة بعد أخرى لأعرف أن ((... ثمة شخص يقبع في مكان ما من البيت، ربما شخص خبيث نجح في الإيقاع به، لم يكن يعلم حتى هذه اللحظة أنه يسير في الحلم، أو إن شئت الدقة...)) تستدرجني الأوراق المتطايرة إلى ردهات داخلية أطارد فيها مخطوطات على غرار ((..تستدرجه الأوراق المتطايرة إلى ردهات داخلية يطارد فيها مخطوطات على غرار ما يدور بخاطره من ومضات خاطفة تلتئم خلالها التفاصيل في لحظة أبدية وتمضي صاعدة...)) إلى أن تبلغ السوناتا ذروتها فتحط على وجهي صفحات مثل ((... أن يتقدم بخطو حثيث داخل الرواق المفضي لحجرة جانبية ينبعث منها الضَوْء الغريب و المخطوطات المحلقة في اتجاهه...)) فأخطو حثيثا إلى عمق الرواق المفضي إلى حجرة جانبية ينبعث منها الضَوْء وحفيف الرسائل المتطايرة نحوي تدفعني للتقدم أكثر، فأكثر، الحجرة مظلمة وخالية إلا من مكتب صغير تنكفيء عليه جثة شخص مجهول، حوله الأوراق لازالت تعربد في الهواء، تسللت على أطراف روحي متلمسا سر الضوع، وموسيقى الهواء المنبعثة من مطارح خفية، وخطاي

المحتومة والمدونة سلفا علي أوراق رجل ميت، دنوت من الجسد الهامد أفتش فيه عن أمارة موت أو رائحة عفن، فإذا بالرهبة تحيلني لعامود من الملح، على ضوء الشمعة استطعت أن أتعرف على ملامح الوجه الشاحب والعينين الشاخصتين أمامي في الظلام، وهنا تحديدا يتضاءل لهب الشمعة، ويلوح الظلام مثل هاجس مخيف خلال لحظات.

في حالة ما لم تكن تحاول الهرب من ذكرياتك التـــي قد تداهمك في الظلام، بإمكانك أن تنام ما تبقى من الليل، وإذا لم يدع لك الفضول ـــ الذي يقودك لحو اكتشافاتي ـــ التي قد تجدها خادعة في نهاية المطاف ـــ مجالا، فبإمكانك أن تهبط للشارع الآن وتدور حول البيت القديم حتى مطلع الفجر، أو تقدم بالفعل على ما أقدمت عليه قبلك في الحلم، كذلك يمكنك أن تطيح بالكتاب من النافذة المفتوحة، ومعه رسالتي، وتتجاهل الأمر برمته، أن تجوب الشوارع باحثا عن مقهى ساهر، أو تستسلم لإغواء البحر المسكون بالأساطير، أو تقنع ببعض الخمر من دكان أورفانيدس بالشارع المجاور، وإذا لم تجد ضالتك في تلك التحايلات التي لجأت إليها مرارا من قبلك للتغلب على قسوة الليل تستطيع أن تواصل القراءة في الغد، وهذا ما ستفعله في الغالب إذا كنت من هواة الأسرار (نرجسية منّي/ فضول منك/ تواطؤ منّا) يمكنني أن أشعر بذلك جيدا وأنت تتفحص كلماتي، وعيناك تشحذان الضوء الشحيح لتنغرسا في حروف الرسالة، وهنا بالضبط، ينفذ زيت الشمعة تماما وتعود الظلمة !..

***

ـــ قصة غريبة.. بس مين سامح عبد العليم ؟

ـــ ما هو دا السؤال اللي كنت جاية اسأله لحضرتك

ـــ الحقيقة مش متأكد احنا اتقابلنا قبل كدا ولا لأ.. بس الاسم مش وارد عليّ..

ـــ أنا عارفة إني اللي هاقولهولك دا غريب ومافيش مبرر لألك تسمعه.. بس اللي أعرفه إنك بتحب الحواديت !

يا الله. من أين جاءت هذه المرأة لتفضي إليه بأسرارها. هل لأنه يحب الحواديت ويحمل معه هذا الحب في كل خطوة كألیق يشع من عينيه، أم هي الحواديت تحبه، وتفطن للوميض الغامض في عينيه مثل قوة جاذبة. كان قد كتب قصة مشابهة عن رجل يتعثر في المجاذيب أينما ذهب أسماها «صائد المجانين»، تذكر بطل قصته وتساءل بينه وبين نفسه هل كان صائد المجانين حقا أم فريستهم. ابتسم حين تخيل نفسه للحظات بطلا لقصة كاتب آخر لم يقرر بعد أن يسميها «صائد الحواديت» الذي يوزع عمره على سواحل الغربة وعتبات النساء، أم «فريسة الحواديت» التي أعياها الطراد، فاختارت الموت في جزيرة وحدها متأثرة بالكتابة. بالطبع لم يجد ما يقدمه لها على رصيف زهرة البستان أكثر من كوب النعناع، وكلمتين عن تاريخ البيت القديم الذي كني عنه في إحدى رواياته ببيت الياسمين. لم يتعرف على وجه سامح في الصورة التي عرضتها عليه، أو يعرف السبب الذي جعله يتخذ نفس البيت مسرحا لرؤاه، وعندما سألته عن جثة الكاتب الميت على مكتبه بوجه خاص، قال لا يعرفه، ولا يتمنى أن يكونه، وضحك ، وبنترة خفيفة أدار رقبته يمينا وشمالا مثل عادة عصبية، وقال في نفسه أحيانا ما يكون خيال القراء أكثر جنونا من الكاتب.

اتصال هاتفي من صديق أنقذه منها في الوقت المناسب، انتهزت الفرصة للذهاب نادمة على اقتحام جلسته الصباحية بإصرار باعة المناديل، راحت تفكر في عبثية اللقاء الذي دفعها إليه الفضول، بينما أخذ طريقه إلى جاردن سيتي يفكر في فتنة البيوت القديمة المسكونة بروح الزهر. لا يعرف لماذا توقف بسيارته أمام صف من الفيللات الهادئة، وأخذ يمسحها بعيون متمهلة كطقس روحاني، أحجارها، صمتها، نوافذها، وغموضها الآسر، ربما لأنه لم يعرف شيئا عن دواخلها، أو لأنها تسكن قلبه، ولا يسكنها أبدا، حريصا على حاجز الرغبة حين يصادفها في شوارع القاهرة والإسكندرية القديمة وفى أفلام داود عبد السيد مثل لوحات لا تمنحه سحرها إلا عن مسافة. صحيح أن الكاتب لا يحمل غربة الجنوبيين على كتفه مثل «قصعة» سيزيف، لكنه يعرف كيف يقاسمهم شجونهم عندما يبني من الكلام بيوتا لا تحتويه، أو عندما يهجرها ليقيم في بيوت أخرى بناها كتاب آخرين. البيوت القديمة ملهمة بما يكفي للباحثين عن واحة للذكرى، عن رحيق حي في زهرة ميتة،عن أنوثة أرستقراطية تغنّي خريفها المنفرد «دومينويندو»، وهي كالذكريات لا تصلح للإقامة، إنما تمنح عشاقها ــ من زهرها وشرفاتها ــ حق سلامة العبور.

لماذا لم يحتفظ بتليفون المرأة صاحبة القصة الغريبة، كان ليخبرها الآن أنه توصل إلى كنه الكاتب الميت في حكاية زوجها. كان الوقت قد فات على ذلك عندما أفاق من الذكرى على أبواق السيارات المعطلة خلفه، فتابع السير كي يلحق بموعد صديقه، عازما على كتابة قصة جديدة عن كاتب شاب أمات نفسه مرة في الحكاية، ومرة خارجها. القصة لا تحكي عن رأفة الكاتب القاتل، ولا عن راحة الكاتب المقتول في حكاية

الكاتب القاتل، بل عن زوجة الكاتب التي تبحث في الجريمة العبثية بين كتاب آخرين، وتمضي ما تبقى من عمرها في إعادة تجميع زوجها من حكاياهم.

أما صفاء فقد واصلت بحثها قدما، ومن مقهى لآخر مسحت شوارع وسط البلد أملًا في الوصول إلى مقهى زوجها الأثير، في يدها الوريقات الثلاث، وفي الأخرى علي. أدركت أنها لن تجد مرادها لدى القصّاصين والكتاب الذين عرفهم سامح ولم يعرفوه، كذلك زملاءه في البنك، حتى سناء لم تكن تعرف عنه سوى بعض الذكريات المترلية المشتركة مثل خصومته القديمة مع الحمام اليومي، والسبانخ، وصوت فايزة أحمد من إذاعة البرنامج العام حين يزفه إلى المدرسة ــ مثل أسير إلى ساحة الإعدام ــ «بالسلامة يا حبيبي بالسلامة..»، لذلك بحثت عن صحابة خارج نطاق الأهل والعمل، «رفاق اللاي» كما اعتاد أن يسميهم، ربما لأنهم الوحيدون الذين عرفهم باختياره، الوحيدون الذين لم يزوروه قبل الغيبوبة أو بعدها، ربما هناك ما يتشاركون فيه سوى دخان المعسل وشدو الهموم على الربابة، وبالفعل كانت أقرب إلى مرادها مما تتخيل، طالما جاءت إلى سينما أوديون ولم تنتبه للمقهى الصغير وراء السينما بالضبط والمعروف بمقهى «الجراج»، ها هي ثلاثة وجوه بين عشرات الوجوه المتراصة على رصيف المقهى لم تتغير كثيرا عما كانت عليه في صور الفرح، ومن خلال رواياتاهم استطاعت صفاء أن تضع يدها على أبعاد جديدة للمأساة .

الوجه الأول

رسم بالرصاص لدورة حياة الفراشة

الصباحات البيضاء في حجرة التربية الفنية، أتذكر خيوط الشمس تشاكس عينيه فيهرب بأدواته وحامل الرسم إلى بقعة لم يحتلها الضوء، يتسلل الوقت فلا ننتبه إلا لصوت الجرس يخطف أرواحنا التي كادت تضيء على الورق إلى زرنيخ المعرفة في حقول نيوتن وأنهار أرشميدس، وحده يسبق الجرس معلنا انتهاءه المبكر، ويبكي.

لماذا تمزق اللوحات يا سامح ؟..

ستة أعوام مرت لم أر من رسومه واحدة. حتى محاولاتنا لاختلاس النظر كانت تدفعه لتمزيقها قبل أن تكتمل، لا لعيب فيها أو فيه. يبذل جهدا كبيرا في ملاحقة فراشات أفكاره، وجهدا أكبر في حبسها داخل الخطوط المناسبة، وجهدا خرافيا في محاولات الرضا عنها باستعدال خط هنا أو هناك، ثم تأتي الألوان لتفسد كل شيء. ستة أعوام اكتسب خلالها قصر النظر و بوادر حدبة طفيفة واضطرابات عصبية أثرت على حركة أصابعه ولم يعترف بنفسه رساما أبدا. ستة أعوام لم يضيعها في تصوير يوم الحساب على حائط السستين، بل في محاولات يائسة لترويض اللون. كان لونا عصيا ظل يراوغه، أو هي لعنة رمادية سكنت عينيه وقميص المدرسة، وخطوطه التي لم يسمح لها بالبقاء، حتى عضلات جسده الرقيقة كانت تبدو أحيانا لعيني مرسومة بالرصاص. كان صغيرا ليعرف ما الذي جعله يعشق الحروف بقدر ما يكره الألوان. وبالحروف فقط استطاع التعبير عما يريد دون مراوغة، مع ذلك فقد هجرته

الحروف لتنطفيء في مدائح سيف الدولة، وفي أمجاد أكتوبر النائمة في كراسة التعبير، لم يجد لكتاباته متسعا ولو في مجلة الحائط. منذ هذا الوقت تعلم أن يعيش في النور، ويرعى حروفه في الظل.

ستة أعوام أخرى.. عشرة.. عشرون عاما تنسحب إلى الرمادي حتى أعود من غربتي ملتمسا الطريق إلى مقهى الذكريات، فيأخذني الرفاق من يدي للاطمئنان على كورنيش النيل ونهود البنات التي طابت في غيبتي، أحدهم يقترح سهرة كحولية تليق بالحدث، والآخر يقلّب في جيوبي بحثا عن «الخميرة» التي سأدفع منها مقدم شقة في حي عابدين ومكتب صغير للأعمال الهندسية يبعد عنها بمحطة أوتوبيس تقريبا، لأحتفظ بآخر درهم في زجاج التسريحة قبل أن أغسل روحي من تراب السفر. تعود بنا الضحكات إلى أول العمر حيث ضحكنا هنا.. ولعبنا هنا.. ومشينا هنا.. وهنا حيث بعنا أشياءنا القديمة واكتتبنا في شراء ساعة حظ.. وهنا ألف ذكرى لم تسقط من الروح في هاوية نيوتن.. ألف حجر يطفو على ذاكرة أرشميدس.. في آخر الليل تخفت الضحكات لنتبين ما تركته الأيام على وجوهنا من رتوش، وحده يعقد ذراعه بذراعي في طريق العودة، ويهمس بنبرة حييّة : كيف حال الرسم ؟!..

***

الوجه الثاني
كونشيرتو الهبوط التدريجي

«ومرت الأيام...»
لتكبر ويبقى صوت أم كلثوم في المقهى على حاله.
نهار، وليل، وطفولة هاربة من قاعة الدرس تفتش في الشوارع عن ذاتها، تطارد ضحكات مديحة كامل في السينمات الرخيصة، وتعزف ألحانها الأولى في «بير السلم» خوفا من شيوع الدخان...
نهار، وليل، وسحابات غيم تنقشع تاركة في الروح آثار يُتم عميقة، وفي الفضاء صوت مصطفى اسماعيل يشيّع العصافير، وعلى الجدار صورة قديمة لأمه لم يشأ أن يضيف لها شريطا أسود...
نهار، وليل، وإيقاع خفاق يحيل الطرق والوجوه والبيوت والعوادم والذكريات إلى حكايات عشق تبحث لنفسها عن مساحة في الدوريات الأدبية، وتعود مهزومة إلى نفس المقهى كي تجد مأواها في قلوب الأصدقاء...
نهار، وليل، وحب عابر يجمع ما تبقى من مسرات في سلة الحلم ويرحل... وسَكْتَة... وانكسار واعد بعيشة آمنة ووظيفة وزواج شبه سعيد، وسرب من الأطفال قد يعيد الحياة إلى أطرافه الباردة في ليالي الشتاء؛ أتساءل الآن لَمَ لمْ أعزف الكمان في زفافه كما تعاهدنا من قبل، هل لأن قلبه لم يعد يتسع للموسيقى، أم لأن أصابعي قد عافت الوتر منذ ارتضيت الوظيفة، أم لأن الكونشرتو المنفرد ـــ دائما ـــ يعتمد على قدرة العازف الخارقة على الصمود وسط حصار الأوركسترا ؟!.

الوجه الثالث

أشعار الأرض

بداية من هؤلاء الجالسين على المقهى في سباقهم، مرورا بالمعلم القابع وراء «النَصْبَة» وصبيانه المنتشرين في الممر، وعمال الورش المجاورة، وبعض الجوالين من باعة الفول والشواحن والساعات والمناديل والأدعية، في الطريق إلى طلعت حرب بمن يقطعونه ذهابا وعودة، ومن يزرعون الرصيف بضائعا وعاديات، والمتربصين أمام محالهم بأي عابر قد يريد أو لا يريد «بدل رجالي»، وجامعي التبرعات لصالح الصم والبكم ـــ والصم والبكم كذلك ـــ والطوابير المكدسة أمام السينمات وثلاجات الآيس كريم، والنساء المتعثرات في صغارهن حول فتارين العرض، وأولئك الناعسين خلف زجاج المطاعم بعيدا عن ضجة الشارع، والجرسونات القائمين على خدمتهم، والعشاق المبعثرين على النواصي، حتى العجائز في شرفاقم، وركاب السيارات قبل أن تتفرق بهم في أنحاء المدينة، الفلاحين في طينهم الأزلي، الساسة المتبسمين في كل الصحف، العمال الدائرين في تروس غربتهم، الجنود الموزعين تحت شمس الانتظار، الرهبان في مسوح العزلة، الأطباء في جنة المورفين، الموظفين الغارقين في مكاتبهم، الحكام على حائط التاريخ، الموتى أو ما تبقى من رفاقم...

... كل هؤلاء الهائمين في رحاب الأرض من أقصاها لأقصاها قد عرفوا الفن يوما، بل مارسوه بشكل من الأشكال، وعندما يضبطك واحد منهم متلبسا بالفن قد يعترف أنه كان يوما يفعل كذا وكذا، أن

هذا الجندي العبوس كان يصنع طائرته الورقية بيده، وهذه الجالسة للأبد على باب الحمامات العامة مثل جوال قطن متورم كانت سنونو يغني «يا حلو تحت التوتة» فترد النجوم، وهذا الذي يزرع الرعب في نفوس شعبه كان طفلا يبني بلادا من الصلصال، وهذا الرقيب الذي ينزع القبلات من شاشة العرض كان يجمّعها في أجندة مراهقته ذات يوم، وهذى العجوز كريهة السحنة والملمس والرائحة كانت تغرد في كورال الكنيسة، وهذا الملطخ بالشحم كان ينقش بالأركيت اسم بنت الجيران، فتهديه شالا مطرزا بحروف اسمها قبل أن تتحول لخيمة يأوى إليها قطيع من الأطفال...

والسؤال

– إذا لم يجد هؤلاء ما يحملهم على الاعتراف بإنسانيتهم من جديد – لمن أكتب الشعر ؟!.

***

منذ أيام حاولت صفاء أن تعيد ترتيب فصول حياتها في سياق درامي، حاولت أن تصنع منها شيئا مثيرا، وفشلت. بدت حياتها عادية إلى درجة لا تصلح للتسويق، صحيح لم يكن لها أي سوابق مع العنف الذكوري، جسمها لا يحمل أي جروح تذكارية من سنوات الصبا، حتى حلاق الصحة لم تواتيه الفرصة، كما لم يحدث لها من قبل أن جاعت أو تعرت أو هربت مع أحدهم في نصاص الليالي. لم يقدر لها أن تنتحر في النيل، أو تدفن في مصحة عامة، أو تُعلّق من ثديها في مباحث الآداب، أو تعاني آخر الليل من نزوات شقيقها «الشمّام». لم تدخل السجن لأسباب

سياسية، لم تعمل في الموساد الإسرائيلي، لم تكتشف مقبرة الإسكندر أو تعرف السر وراء ظاهرة الانتحار الجماعي للحيتان، لم تستشهد في الحرب، لم تقتل أبيها أو تنجب من أمها بالقطع، لم تذهب لجبال البيرينيه من قبل، ولا تمتلك خبرات في فن تعذيب الخدم؛ مع ذلك ألا تستحق حياتها أن تكون حكاية ولو عادية ؟!..

تبدأ الحكاية كأي حكاية عادية في صباح عادي حيث يخطط زوجان عاديان للاحتفال بعيد زواجهما، إلا أن دخول الزوج في غيبوبة مفاجئة يتيح للزوجة فرصة البحث في ذكرياته عن أسرار حياة أخرى مسكوت عنها، أثناء بحثها تتعثر في المزيد من البؤساء الحالمين بحيوات بديلة، في انتظار أبدي لرسالة لم تصلهم، أو طفولة لم يعيشوها، أو خبر لم يقرأوه في جريدة الصباح، أو لحظة ربما يتحدد فيها معنى وجودهم، مثل أشياء عزيزة ترفض الاعتراف بموتها فيهم عندما يترحون لأنفسهم في الليل، أو عندما يعالجون حياتهم بابتكار بعض الأكاذيب الصغيرة، هم بلا شك جماعة محبي بيت الياسمين، هم كمشروع رواية لم تكتمل لا لأن كاتبها لم يجد الوقت، بل لأنها باكتمالها قد تفقد معناها الحقيقي. بقي السؤال الذي يؤرقها هو كيف يمكن أن تنتهي الحكاية، كانت تأمل في نهاية سعيدة ـــ وإن جاءت مقحمة ـــ كتعويض عادل إلى كل الحالمين عن شعورهم العميق بالفقد. قالت في الحكاية دائما متسع للحلم، وفي الحلم فقط يمكن أن ينام الزمن حتى لا تسقط الفراشات في الذكرى، حتى نكتفي من الأشياء بحلوها، ومن العمر بأوله. في الحلم فقط يمكن أن تكون كل الطيور أليفة، وكل البلاد جميلة، ويمكن للسنة كلها أن تكون ديسمبر، لذا حاولت أن تبحث في ذكرياتها عن بعض حلم، عن

حياة بديلة لم تعشها، جلست إلى أوراقها وكتبت :

« الآن يمكنني أن أراك، الغرفة مظلمة إلا من ضوء الشمعة التي أشعلتها لتوي، خلت الإسكندرية من حولي وتلاشى العالم لحظة . . . .

. . . .

. . . .»

— ٣ —

تردد جو كثيرا قبل أن يحزم حقيبة السفر ــ وعرفانا لسِفر التكوين قرر أن يتخذ من حقيبته الوحيدة فُلكا يعيد مِن خلاله خلق الحياة على طريقة نوح دون حاجة إلى طوفان جديد، وفكر ــ ماذا يصطحب معه من ذكريات ؟.. قسّم العالم إلى كومتين إحداهما تعلو قليلا عن الأخرى، مثل :

أشياء يمكنه الاستغناء عنها :	أشياء لا يمكنه الاستغناء عنها :
• معطف للمطر.	• جناحان للريح.
• معجم للعشق.	• قلب للسكن.
• لسانه.	• بضع أصابع للعزف.
• حبيبته.	• اسم حبيبته.
• الساعات.	• الندوب.
• الشجر.	• الأعمال الشعرية الكاملة لآرثور رامبو.
• اشتراك المترو.	• طاقمان للصباح والمساء.

- ابتسامة الجيوكاندا.
- تمائم تيتا نبوية.
- خبز أمه.
- الكونسيرفتوار.
- المتاحف.
- وجه مذيعة الأخبار.
- تماثيل وسط المدينة.
- الإشارات.
- الخواتم.
- رباط شعره.
- عناوين أحبته.
- ضمائر الغائب.
- العازل.
- الموسيّ.
- خبز أم مارسيل خليفة.
- الموسيقى.
- دهشته.
- ابتسامة تهكم مولود بها.
- روح الغورية.
- كل ما أفرزته القريحة المصرية من أغان خلال السنوات الأخيرة.

غير أنه لم يحسم أمره مع صفاء. كان قد نجح في امتحان التاريخ وشرع في بناء كذبته الأولى بالفعل، سيسافر ألمانيا لدراسة الموسيقى، الكل يعرف ذلك ما عدا أميمة، أقنعها أنه ذاهب لدراسة «حاجة عليها القيمة»، وبالتواطؤ مع خاله أخذت ترتيبات السفر مجراها وبقت صفاء وحدها سؤالا معلقا في فضاء عقله مثل بندول، تك، تاك ــ تك، تاك ــ تك... هي آخر صدى من حياة تؤول إلى الصمت، تاك... هي أول وعد بحياة تدوزن أوتارها الآن، تك... أم حلم قصير فارق بين حياتين. قنع بانتهاء مهمته في استدراجها إلى الضوء كصغار الكابوريا ــ فقط

كي لا تصنع منها الأيام أميمة أخرى ـــ على أن يترك لها الآن الخيار بين فتنة الشمس أو العودة على ظهر أول موجة راجعة للبحر. أدرك أنها في غيابه قد تتألم أحيانا لحالها، قد لا تجد من الموسيقى ما يعينها على الأرق، أو مَن يفاجئها بزيارة نصف ليلية حين تطرده أمه، أو مَن يعفيها من معاملة باعة الخمور عند اللزوم، قد تنسحب إلى سمنة تدريجية، أو تكتفي بهوايات الأربعين كحضور الأفراح بما تبقى لها من زواق، والطواف على المآتم بما تدخره من دمع، الغناء أمام حوض الغسيل، البكاء في شوارع بعيدة عن بيتها بما يكفي، البوح لجاراتها بأكثر مما يجب، لكنها على أي الأحوال لن تتفرغ للموت وهذا ما أراده. لذلك رأى أن يؤجل قرار إدراجها في إحدى القائمتين إلى أن تتخذ موضعها مع الوقت، موقنا أن بعض الأشياء التي يتلفها النسيان تكون منذورة له من البداية.

بعد أن ودعها، شرعت للتو في كتابة رسالتها الأولى، موجهة إليه تحت اسم أرمسترونج، وموقعة باسم فيرونيكا، وقد تراجعت عن إرسال الخطابات في البداية (حتى تتوصل لصياغة مرضية)، وبعد ذلك (حتى تتأكد من حقيقة مشاعرها تجاهه)، وبعد ذلك (حتى تعرف الجدوى من إرسالها أساسا)، بعد ذلك كان عليها أن تجد مبررات أكثر إقناعا لعدم إرسال الخطابات يوما بعد يوم، إلى أن قررت الاحتفاظ بها كمسودة بدائية لمشروع رواية، ولم تنتبه لأنها تنساق تدريجيا إلى كذبتها الخاصة، وفيها بدأت تشعر بالراحة أكثر فأكثر، أصبحت لها حياة بديلة تأوى إليها، رغم ذلك كانت بينها وبين نفسها تتوقع أحيانا أن يصلها منه خطاب، مجرد خطاب واحد قد يبدد مخاوفها. والغريب أنها لم تعد تشعر بالمرارة من غريمتها النائمة في مذكرات سامح، خاصة بعد أن صارت

تلعب الكونكان معها في المنام، وكأنها ودعت غضبها منذ مدة عادت للمستشفى وسألت :

كيف يمكن للغيبوبة أن تؤثر في الذاكرة ؟..

إذا حكت لأحد أو حلفت بكل الأيمانات أنها عاشت ثلاثين سنة من عمرها في غيبوبة فإنه لن يصدق. ثمة طفولة مجهَدة لم تصنع لنفسها عالما فغابت في عوالم الآخرين، بذلت روحها كي تنال رضا أمها، ووظيفة أبيها، وزوجا بمواصفات شبه سينمائية، وطفلا تمنحه اسم أخيها الراحل ليعيش. آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وسمائه، وأرضه، آمنت بنهار القرية، وليل المدينة، وعناوين الصحف، وأضرار الشاي، وفوائد الشرطة، والنهايات السعيدة، وعروض التوفير من «إيريال»، وبراءة ابن يعقوب من دم الذئب! لتشهد وحدها في النهاية آخر مراحل تطور المسخ. ثمة نجوم صغيرة لا تذكر كيف سقطت من الروح ؟..

كيف يمكن للغيبوبة أن تؤثر في الذاكرة ؟..

لا يتذكر المريض مرحلة الغيبوبة نفسها وكأن الوقت قد توقف لديه قبل الدخول فيها، وبذلك فهو لن يبكي على حياة قد عاشها فيها، وعلى مدن قد بناها ورحل عنها، وحدائق زارها وقطف من زهورها، ومعارك خسرها أو كسبها ــ لا فرق، وغزلان فاته أن يصيدها، ومقاهٍ بدد عليها ضحكاته وعمره، وشجون وأغنيات كبرت معه. وقد يحتاج إلى إعادة تأهيل من النواحي الجسدية والنفسية بعد طول رقاد حتى يستعيد قدرته على النطق والحركة.

يمكنها أن تدبر الأمر، يمكنها أن تنتظره ألف ألف عام، سيعود سامح حتما، وستسهر كل ليلة إلى جواره حتى يعاود السير والضحك والكلام

والكتابة، وستصحبه إلى نفس الأماكن التي شهدت طقوس حبهما من قبل، ستصر هذه المرة على القيام بنزهة نيلية في مركب شراعي، وسيحاول أن يفسر لها خوفه لكنها لن ترق لتوسلاته، وستضحك من قلبها حين يتشبث بها مثل طفل أثناء الطلوع والنزول، وفي المطعم سيفاجأ الجرسون عندما تخبره أنهما سيجربان اليوم صنفا جديدا، لدرجة أنه لن يستطيع إخفاء دهشته، وستنجح في إقناع سامح بضرورة صنع ذكريات جديدة في باقي السينمات التي لم يتبادلا القبلات فيها، وفي آخر الليل لن تتحمل العودة للمنزل سيرا على الأقدام، ستخطف مفاتيح السيارة من جيبه وتقفز فيها، تديرها وتنطلق بينما يركض محاولا اللحاق بها، وبعد أن يذهبا للاطمئنان على علي سيدخلان في الفراش، وستفتح له الطريق كي يأوى إليها، تستسلم لشفتيه حين توقعان على كل سنتيمتر من جسمها، وتمنح نفسها الفرصة لأن تتذوقه، ستضمه بقوة، ستضمه كما لم تضمه من قبل، ربما ستنبت لها أذرع كثيرة تساعدها على اعتصاره، وبكل ذراع لديها ستحثه على الولوج فيها أكثر حتى تبتلعه أو تكاد، وكأنهما بذلك سيكتبان تعاليما جديدة للطاو. لن تمهله الوقت للانسحاب إلى نفسه للحظات، أو لمجرد التفكير في التقاط صورة لوجهها المعجون بالندى والألم، وستشعل النار في عروقه بكل ما أوتت من رغبة حتى يفتتها لذرات صغيرة تتشربها الملاءة، أو يتحولان إلى كائن خرافي متحد بنفسه للأبد، لن ترضَ حتى تذوب عظامه من النشوة ويدركه النوم، وعندها فقط ستتركه، ستهجره، ستجمع أغراضها في الليل وتختفي من حياته بلا مقدمات! ليس انتقاما منه، ولكن لأنها لم تعرفه حقا إلا عندما فقدته، الآن تريده أن يعرفها

ولو قليلا، لذلك ستهجره، تعرف أنهما سيلتقيان مجددا، لكنها لا تعرف متى؟.. أو كيف ؟..

كيف يمكن للغيبوبة أن تؤثر في الذاكرة ؟..

منذ سنوات راودها نفس الحلم للمرة الأولى، كانت غافية حين تسلل إلى مخدعها عصفور صغير وبدأ ينقر شفتيها بوداعة، تمطت بنعومة، شعرت بالعصفور يختبيء في صدرها من فتحة المريلة، للحظات أدركت أنها تحلم، فقاومت كي لا يتسرب لعينيها ضوء الصباح، قاومت للإبقاء على العصفور بداخلها أطول وقت ممكن، وعندما صحت على صرخات أمها كان العصفور ميتا في صدرها بالفعل، مختنقا ما بينها وبين الوسادة، ساكنا، ساكتا، سعيدا برغبتها القاتلة في احتضانه، وحزينا لأنها لم تصدق في وجوده.

أما بعض الأشياء

فلا نتذكر أننا لا نتذكرها..

علينا أن نجدها من جديد !

عزيزتي فيرونيكا..

(ربما في نهاية أخرى ...)

أحبك.

أرمسترونج

انتهت

٢٠٠٧ ــ ٢٠١١

العناوين :

فصول السنة كلها يجب أن تكون ديسمبر ...
ماركيز (ليس لدى الكولونيل من يكاتبه)

لن يغير شيئا ...
باموق (الكتاب الأسود)

ألفتى الذي يعشق العصافير ..
عادل جلال (١٠٠ قصيدة ليست لها)

الكتابة هي ...
جان جينيه (الجرح السري)

أما بعض الأشياء فلا نتذكر أننا لا نتذكرها ...
باموق (الكتاب الأسود)

ألف كذبة وكذبة (قائمة المسروقات) :

(حكايات للأمير حتى ينام)
يحيى الطاهر
(إلى أن يصدر الحكم)
سميح القاسم
(أحلام شهرزاد)
طه حسين
(فن الرواية)

ميلان كونديرا

(الكتاب الأسود)

أورهان باموق

(٢٠٤٦)

كير واي وانج

(فصل في الجحيم)

آرثور رامبو

(أفراح القبة)

نجيب محفوظ

(خيال في الهند)

عبد الحكيم حيدر

(كنت طفلا)

عبد المنعم رمضان

(الفرح ليس مهنتــي)

محمد الماغوط

(الكراكي)

سليم بركات

عن المؤلف

الاسم:-

أحمد نبيل

صدر له من قبل:-

* حلاوة شمسنا .... مسرحية (الهيئة العامة للكتاب)
* خيط واحد للدانتيل........ رواية (المحروسة للنشر والتوزيع)

تحت الطبع:-

* أنا أوتوليكوس الذى كان الجميع .... (رواية)
* الخروج عن النص .... (مسرحية)

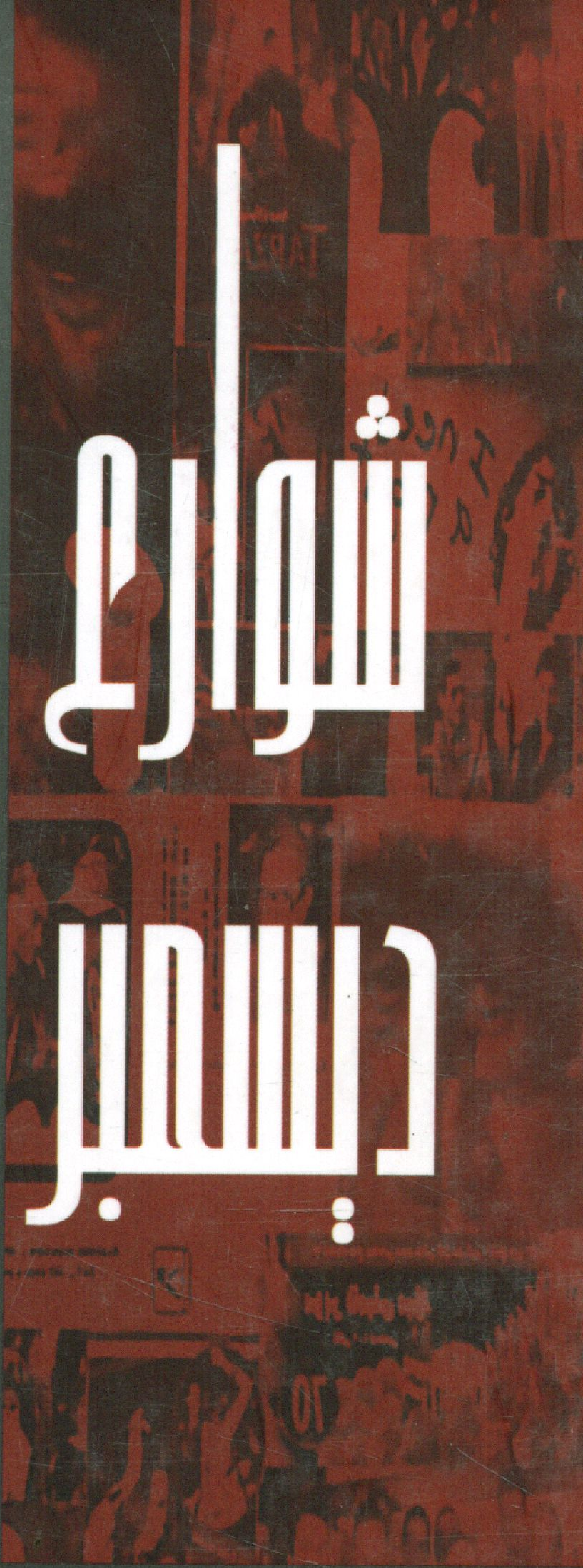
الجوائز:-

جائزة محمد تيمور للإبداع المسرحى المركز الأول ٢٠٠٨ عن مسرحية حلاوة شمسنا.

جائزة المحروسة للنشر ٢٠٠٧ عن رواية خيط واحد للدانتيل.

جائزة ساويرس في السيناريو ٢٠١٠ عن سيناريو الفيل النونو الغلباوى.

Email: ahmed.dolseen@hotmail.com.



وفي طريق العودة ستلاحظ صفاء والسيارة تعبر بها كوبري أكتوبر من فوق شارع رمسيس تمثال العذراء مريم المنصوب في أعلى طابق بمدرسة القلب المقدس، هذه المرة لن تبتسم كما كانت تفعل عندما ترى العذراء في وضع التجلي تفتح يديها في وداعة و بشر و تشرع في احتضانها ـ ومنذ هذه اللحظة تقريبا ستبدو لها العذراء في جميع التماثيل والتصاوير المعلقة وكأنها لا تقف عاليا هكذا بمزاجها، إنما تفرد ذراعيها مثل طفلة تخاف السقوط، وتدمع بيدين مفتوحتين علي العالم، تفتش في العابرين عمن يحملها لتنزل الأرض بسلام

978-977-6402-22-5

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع